خوسيه دونوسو



الباب الموصد

قصص قصيرة عالمية

ترجمة:

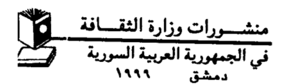
علي ابراهيم أشقر

خوسيه دونوسو



قَصَصٌ قَصِيرَةٌ عَالَمِيَّة

تَرجَمَة
علي إبراهيم أشقر


منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب:

José Donoso

LA PUERTA CERRADA

الباب الموصد: قصص قصيرة عالمية= LA PUERTA CERRADA/ خوسيه دونوسو؛ ترجمة علي ابراهيم أشقر. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩. - ١٢٨ص؛ ٢٤سم.

١- ٨٦٣ س د و ن ب ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي

٤- دونوسيه ٥- أشقر مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٣١٥/ ٧/ ١٩٩٩

الباب الموصد

كانت آديلا ديرينخيفو تشكو دائما أن كلّ مصائب الحياة نزلت بها: ترمّلها وهي في الخامسة والعشرين؛ فقرها واضطرارها الى العمل لتعيش بقليل من الكرامة؛ ووجود ابن صغير مريض؛ يعني ليس مريضاً بالمعنى الدقيق، وإنما هو ضعيف البنية ينام ضعف ما ينام الأطفال عادة.

في الواقع، كان سباستيان، منذ ولادته، ينام كثيراً. كان يضع رأسه على المخدّة، ويغمض عينيه، وخلال ثانية واحدة، يغرق في النوم كملاك من ملائكة السماء.

- «المسكين الصغير عاقل وهادئ جداً». -كانت آديلا تقول لرفيقاتها في العمل- «فلا يبكي ولا يستيقظ ليلاً كما يفعل كل الأطفال».

كانت آديلا وسباستيان يقطنان حجرتين تقعان في الطابق الثاني من (بنسيون) رطب قليلاً ومظلم حقاً؛ لم تكن الحجرتان سيئتين وإن كانت نافذاتهما تطلّان على فناء داخلي ضيق جداً. حين تنطلق آديلا إلى عملها صباحاً، كانت السيدة ميتشيتا صاحبة (البنسيون) تتولى رعاية سباستيان. وإذْ كان طفلاً هادئاً للغاية، فلم تكن تجد حاجة تقريباً للاهتمام به، لأنه ما كان يزعجها بصخب أطفال سنّ الخامسة؛ ولا (شقاوتهم) التي تجعل الحياة بعامةٍ لا تُحتمل. فبينما تشرع في إنجاز أعمالها المنزلية الصباحية، كان ينزلق إلى حجرته الخاصة، فيستلقي على السرير وينام مِلءَ جفونه. كانت السيدة ميتشيتا تدخل لتتفقده؛ فقد كانت تشعر بما لاأدري إزاء طفل يفضل في مثل سنّه، النوم على اللهو بأشياء يألفها الأطفال إلفة كبيرة؛ فعزمت

ذات مساء على لفت انتباه آديلا إلى وضع ابنها، فاقتربت منها متظاهرة بالجهل، وقالت لها دون أن ترفع بصرها عن شغل الكروشيه :

- «ماشاء الله! كم ينام ابنك يا آديلا! أيعاني مرضاً؟».

فأجابتها آديلا بهدوء شديد :

- «أي شيء به، إن كان ينام كما يروق له؟»

- «حسن! كان ذلك مجرّد قول».

أجابت السيدة ميتشيتا. ولما ابتعدت، ضغطت على فكّها الذي يشبه فك الكلب، وهي تفكر في أنّ الأرامل الشابات عُصابيات بإفراط، وأنها ستحرص على الا تأوي واحدة منهن في المستقبل.

أثارت ملاحظات السيدة ميتشيتا مخاوف آديلا، فلم تستطع أن تتجاهلها. لم يكن ثمّة شك في أن سباستيان ينام أكثر مما ينبغي. لايعني ذلك أنه كان يقضي النهار حالماً منوّماً، وإن كان «يسقط» في النوم فجأة. نعم، كان يبدو له أمراً محبّباً أن ينام لحظة. وهذا ما كان يفعله، كمن يزجي الوقت بتسلية ممتعة للغاية، مستلقياً على سريره الصغير ذي القوائم البرونزية، أو جالساً على أي مقعد. أمه كانت تنظر إليه أحياناً بقلق وهو نائم. هذا الأمر كان يهدّئ من مخاوفها، لأنها كانت واثقة بأن مكروهاً لايمكن أن يصيب كائناً ينام ووجهه مخدّر، وكأنما تجري وراء جفونه مشاهد من وجود مسحور.

مهما كانت محاولة آديلا بألا تكون مضطربة، فلا يمكنها التغافل عن أن ابنها كان طفلاً مختلفاً. فكيف لاتشعر بالضيق؟ كان لامبالياً ووحيداً. ويبدو أن لا علاقة تربطه بما يجري حوله: لا بالأشخاص، ولا بالأشياء؛ ولا البرد ولا الحر، ولا المطر الملحاح الذي يلطّخ أثناء الشتاء زجاج طاقات المدخل بالغبار المتراكم. كان يشبه القمر، فلا يطلّ على العالم إلا بوجه واحد. وكان يثير شيئاً من الخوف. لكن نزلاء البنسيون الآخرين كانوا لطفاء معه، ودون غاية، إلا إكراماً لأمه التي هي بعد

كل شيء سيدة بالرغم من الحظّ النكد الذي لقيته في هذه الحياة. لكنها لم تكن تخدع نفسها: لأنها كانت تعلم أن أحَداً منهم ما كان يجد سباستيان جذاباً. وكان الألم يعتصر روحها، لأنه كان من المحال عليها ألا ترى جانباً من الصواب عندهم. فقد كان غريباً للغاية أن ينام طفل في الخامسة من عمره كلّ هذا النوم، ولا يعجبه أن يصنع شيئاً آخر. ولايعني ذلك أنه يظل مستلقياً بسبب النوم أو التعب. وإنما كان يختار اللحظة و«يشرع» في النوم، كالأطفال الذين يأخذون بالغناء، أو يشرعون في اللعب بالكرات وهم راكضون. ما كان يهتمّ بأقرانه. وكانت تضجره الكتب والمجلات والأفلام. وما كان يحب اللعب. الشيء الوحيد الذي كان يبدو انه يرغب فيه، هو أن يتخلّى عن كل ذلك، ليتّجه فيستلقي على سريره و«يبدأ» في النوم.

ذات يوم سألته آديلا:

- «بماذا تحلم يا بني؟»

- «أحلم؟»

- «نعم؛ ألست ترى رؤى حين تنام، أشياء كالصور والقصص؟»

- «لا، يبدو أن لا. لاأتذكّر شيئاً.» أجاب سباستيان وهو يداعب يدي أمه التي لم تستطع كبح غضبها من هذا الجواب، فسألته بجفاء:

- «إذاً، لماذا تنام كل هذا النوم إذا كنت لاتفيد منه شيئاً؟»

- «النوم يعجبني، يا أمي».

لما سمعتْ ذلك منه، استشاطت غضباً بحق، إذ كانت ترى نفسها مكرهةً على العمل والتضحية لتعيله. كانت لاتزال شابّة وذات مظهر حسن. لكنها، إكراماً لهذا الابن، كانت تحتقر عروض الرجال الذين كانوا يحاولون مغازلتها في العمل. من أجله، ومن أجله فقط رفضت كلّ العروض، وقاست كثيراً من الألم، بينما هو يستسلم لرغبته في أن يقضي نهاره نائماً. وكان ينام لأنه كان يعجبه أن ينام

وحسب. كانت تتشكّى من أن سباستيان تعوّد من نعومة أظفاره على القيام بالأشياء لمجرد أنها تعجبه. وكان هذا موقفاً خطِراً يكاد يكون لا أخلاقياً. كان عليها في البداية أن تعترف بذلك، وظنّت أنها تلمح، بشكل غامض، وظيفة سريّة في نوم ابنها، وكأن هذه الأحلام تحوي كنزاً، أو شيئاً ما لاهي ولا هو يدركانه؛ لكنه قد يتكشّف في المستقبل عن أنه مفيد وهام جداً. هذا الأمل المبهم جعلها تسكت وفي نفسها شيء من الخوف. لكن، إن كان الأمر أمر هواية، فهو عار. وهي، أيضاً، لها رغبات، وكانت تودّلو استطاعت الاستسلام لها.

- «لابأس يا أمي.» -قال سباستيان وقد أفزعه سوء مزاج أمه-. «اذا كنت ترغبين فلن أنام إلاّ في الليل»،

توقّف قلب آديلا فجأة وكأنه على شفا السقوط في بئر. لاذت بالصمت. ثم استطاعت بعد لحظة أن تسأل بصوت بطيء جداً، وخفيض جداً:

- «إذاً، أنت تعمل أي شيء إن أردت. أليس كذلك؟ أتستطيع التحكّم بنفسك؟»

- «نعم، يا أمي. أنام حين أريد النوم».

لما رأت ابنها واقفاً إزاءها وحيداً وغريباً للغاية، مستسلماً لهذا الذي لايستطيع هو وهي أن يفهماه، ناظراً إليها بعينيه البائستين الزرقاوين بجدٍ بالغ، أحست بالحب يغمرها، ولم تستطع كبح نفسها فعانقته، وقبّلته وضمته إليها بشدّة، قائلة له:

- «لا تهتم، لا تهتم يا بني! نمْ ما شئت أن تنام».

وفكّرت، بمرارة، ان ابنها صورة حيّة عن أبيه. هو صبيّ جميل حقاً، لكنه قد لا يكون ذكياً كما يجب؛ على الأقل، ليس بذكاء (كارلوس ثاوثه) رئيس قسمها في العمل الذي لم يكن يدعها في هدوء بدعواته، وكلمات الغزل التي، وإنْ كانت رقيقة، فقد كانت ملحّة بشكل مغرٍ، لأنه لا أحد يمتلك شيئاً، شيئاً ذا بالٍ داخل

رأسه، يجد متعة بشيء لا طعم ولا أهمية له، كالنوم خارج أوقات النوم. أخيراً لما دخل ابنها المدرسة في العام التالي، صار من السهل قياس قدراته العقلية. في المدرسة، إن لم يكن سباستيان طالباً لامعاً، فقد كان، على الأقل، يقوم بواجباته على أتمّ وجه. كان طيّعاً وهادئاً؛ وكان يحظى برضا الناس جميعاً. لكنه رضا ما كان يُبرزه بوضوح؛ زد على ذلك، كان يُرضي الناس بشكل لاشخصي، وكأنه يطلب منهم أن يَدَعُوه بسلام. وهكذا، ما كان يحتكّ برفاقه ولا بأساتذته. وما كان يخرج مع أصدقائه أيام العطل والأعياد أبداً، وحين كان الأطفال يعودون من المدرسة متْعَبين، يعلوهم الغبار، ويتوقفون لشراء الحلوى والقيام ببعض المشاكسات الصغيرة، كان سباستيان يتجه مباشرة إلى بيته، فيتناول الشاي ويكتب وظائفه. وبذلك، كان يحصل على حقّ في تحقيق إرادته، فيستلقي لينام كمن ليس عنده أدنى استعداد ليضيع ثانية واحدة.

كان أيام الأحد والسبت يقوم بالأمر نفسه، فينام من صباح هذا اليوم إلى صباح اليوم التالي مدركاً أنّ سلوكه ودرجاته تمنع أمه من أن تتفوّه بشيء حول الموضوع. كانت آديلا تسعى أحيانا بشيء من الفزع الى حجرة ابنها، فتراه نائماً. حينئذ، كان يرجّ كيانَها خوفُها القديم. خوف أو شيء أخطر وأبعث على القلق أيضاً، أعني الاحترام. لأنها كانت تلمح في هذا النوم شيئاً يلغيها، شيئاً أكبرَ وأدقّ كثيراً من أن يقع في شبكة خيالها المحدود والمتصلّب قليلاً؛ وأكثر ما كان يثير الاضطراب فيها، تبسّمُ سباستيان خلال نومه دائماً. لكن بسمته لم تكن البسمة المألوفة والمطمئنة التي يبتسمها طفل يحلم ببيوت وسيارات وأشياء مترفة، ويرى نفسه محوطاً بحماية أمّ جميلة وأب قوي؛ هو كان مختلفاً عنهم جداً، وكأنّ روحه تهرب من جسده وتلوذ بعالم عجيب يختفي وراء جفنيه. كلُّه، كل كيانه كان يبدو محصوراً هناك، داخل نومه دون أن يدع شيئاً منه ينفذ إلى الخارج، ليجابه أمه التي كانت ترقبه وحيدة. كان هناك... هناك تواتر وحشيّ يثير انطباعاً بأن نوم سباستيان شيء مكتمل بذاته، مغلق بقوة، ويكفي نفسه بنفسه، دون أن يحتاج إلى شيء من الناس أو من أمور الدنيا؛ بالطبع ما كان يحتاج إليها أيضاً، كانت ظلاً

يمكن تنحيته بسهولة كبرى عن كل نعمى. رؤيته نائماً كانت تمثّل لها حدساً قاسياً مُبْهماً بكل ما لم تكنهُ أبداً، وبكل ما لاتستطيع أن تكون، أو تفهم أيضاً. لما أتمّ سباستيان الخامسة عشرة، السادسة عشرة، بدا كأنما خلّف أمَّه، أمه البائسةَ وراءه بعيداً جداً، وكأنه صار نقطة ضئيلة للغاية تلمحها بصعوبة للحظة واحدة قبل أن تذوب في نهاية الطريق.

في تلك الأثناء، كانت آديلا تدخل أعوامها الأربعين، وما كانت تستطيع الاستمرار بمقاومة اهتمام كارلوس ثاوثه بها. فقد كان يغازلها منذ سنوات، سنوات عديدة، كان فرصتها الأخيرة، وكان عليها أن تغتنمها، لأنها ما كان بمستطاعها أن تظلّ تذوي في حجرتها في بنسيون السيدة ميتشيتا. فصارت تخرج لتناول الطعام وللنزهة مع المعجب بها. كانا يذهبان معاً الى حفلات الرقص والسينما. ولم يمض وقت طويل حتى شعرت أن هذه الحياة وهذا الحماس قد جرفاها. وخلال شهرين طلب إليها ثاوثة أن تتزوجه، فوافقت بسعادة. وهكذا صارا حبيبين فوراً، فبينما كان ابنها يحلم بأمور مستحيلة، كانت أحلامها يملؤها إحساسٌ بشاربين أسودين يداعبانها، وحرارة ساقٍ ذكرٍ الى جانب ساقيها؛ لم تعد وحيدة ولم تعد مُبْعَدة عن الحياة بلا مبالاة ابنها الغامضة. لكن ما إن تحقق حب كارلوس ثاوثه، حتى راح يضعف شيئاً فشيئاً. صارا يتحدثّان أقلّ فأقل عن الزواج؛ وذرفت دموع غزيرة. ولعلّ حديثهما عن الحبّ أخذ يخفت رويداً رويداً بسبب هذه الدموع، إلى أن صارا لايلتقيان أبداً تقريباً. بالطبع صارت نوايا رئيسها تتّجه صوب جانب آخر، صوب سكرتيرة قسم الأعمال، التي يقع مكتبها تحت مكتبه بطابقين. كانت شقراء، شابة إلى حد ما لكنها لافتة للنظر بإفراط حسبما أعلمتها زميلاتها في العمل.

عانت كثيراً كيما تسلو. لكن لم يستطع أحد الزعم أنها فقدت كرامتها. بل أسوأ ما في الأمر أنها كانت أخبرت ابنها بأنها ستتزوج، وستأتيه بأب جديد. وها هي ترى نفسها الآن في لحظة حرجة بأن تبلغه بأن الحياة تكفّلت بتحطيم حلمها أيضاً.

- «ألا تقول لي شيئاً؟» -سألت آديلا ابنها لما لاحظت أن نجواها لا تحرك مشاعره- «اترك اللعب بهذه المزيتة فسوف تلوّث ثيابك بالزيت. أتظنّ أن شراء الملابس لايكلّفني غالياً؟».

ثم أجهشت في البكاء، وأضافت بصوت أخنّ.

- «ما يجري لي لايعنيك في شيء».

- «بلى، يا أمي!» -أجابها سباستيان- «كيف يخطر لك أن لا؟»

تباكت قائلة:

- «كلا! كلا! أنا أقلّ من العدم عندك. أنت أنانيّ. وقد صرت متْعبة من اضطراري إلى العمل والعيش وحيدة. صرت عجوزاً، وقد وصف لي طبيب العيون نظارة قائلا لي إني أعاني من طول النظر الشيخي».

ولما أنهت قولها هذا، شرعت تنتحب.

- «أمي، من فضلك لاتبكي. خذي امسحي أنفَك. من جهة عملك، سبق أن تحدثّنا عنه. سأنهي دراستي هذا العام، وأترك المدرسة بحثاً عن عمل جيد. سأسعى لكسب المال لأساعدك. زد على ذلك، أنّي سأتمّ السابعة عشرة، وأريد أن أحقق رغباتي».

كبحت نحيبها فجأة، ناظرة إليه بغضب وصاحت:

- «لكن، ما الفائدة، إذا كان الشيء الوحيد الذي ترغب فيه هو النوم كمغفّل؟».

عند سماع ذلك، سمرّ سباستيان أمَّه بنظرة، ومع ذلك، كان ينظر وكأنه لايراها. أما هي، فقد توقّف قلبها. لأنها رأت في هذه النظرة كلّ ما هو غير مفهوم وغير مُدرك في حياة ابنها. ثم انفجرت باكية مرة أخرى. ومع ذلك، استطاعت بين دموعها ونحيبها أن تسأله للمرّة الأولى عما يعنيه نومه. فإذا لم تسأله الآن، فقد

لاتستطيع أن تسأله بعدئذ. وكانت غير قادرة على العيش محاطةً بهذا الجفاء، وهذه الوحدة الموحشة.

- «كيف أشرح لك ذلك، إذا كنت أنا نفسي، لاأفهمه»؟

أجاب بهدوء. كانت آديلا قد هدأت الآن، وحركت ظلّة المصباح فغمر الضوء الورديّ وجه ابنها تاركاً وجهها في العتمة.

- «ذلك كأنما وُلدتُ بهذه الموهبة في أن أنام متى أشاء وقَدْر ما أشاء. وبهذه السهولة التي أغفو بها، ربما صار النوم الشيء الوحيد الذي يسرّني أن أقوم به. ما عداه يشبه ظلالاً لا أهمية لها. ومع ذلك، لم أفهم أبداً بوضوح ما يجري لي. السعادة الممكنة عندي تكمن في النوم؛ وهو ما يبدو بائساً ومحالاً جداً. لكنني من أجله خُلقت. وهو الأمر الوحيد الذي يعنيني. لديّ إحساس بأنني أحلم وأنني سعيد. أحلم بشيء حقيقي وساحر. أحلم بعالم من نور يُضيء كلّ شيء. ولا يشعّ لي وحدي، وإنما من خلالي يضيء للناس جميعاً. لكنني، حين استيقظ، أحسّ كأن باباً يُغلق على ما كان يتضمّنه الحلم. وهذا الباب لايتيح لي أن أجلب إلى هذه الحياة، وإلى هذا الواقع الذي يشغله الآخرون، سعادة عالم الحلم. أنا بحاجة إلى فتح هذا الباب. لذلك، أنا بحاجة إلى النوم كثيراً، كثيراً حتى أحطّمه، حتى أتذكر السعادة التي يحتويها حلمي. . . ولعلني، ذات يوم. . . »

- «لكنك، يا بني، مجنون. لأن ما تسعى اليه لا يناله إلا الموتى».

- «لا، يا أمي، الأمر ليس في الموت. لأن الموتى لايحلمون. لكي أحلم، ينبغي لي أن أكون حياً. وهكذا، يجب عليّ أن أظلّ على قيد الحياة. أنا لم أُسلِمْ حياتي كلها للنوم. لكنني أحس أحياناً بأنه يجب عليّ أن أقوم بذلك، وإن كنت لَا أعرف ماذا سأجد وراء هذا الباب. لعلني أكتشف أن ابتعادي عن الحياة كما يحياها الآخرون، كان ضلالاً؛ أو أنّ ما يخبّئه الباب، غيرَ جدير بأن يضنى المرء لمعرفته. لكن كلّ هذا لايهم. السعي وراء مصير أحسُّ به أنه حقيقي، يسوّغ وجودي ويعطي معنى لحياتي. أفكر بحيوات الآخرين وأشعر بالأسى نحوهم، لأنهم يفتقرون إلى هذا المركز الذي أحظى به؛ فهم لايعرفون الحميّة التي تحركني. فإذا وُجد وراء هذا

الباب ما أعتقد بوجوده . . إنْ كان هناك نومٌ يتيح لي الفهم، وعند الفهم، والشرح . . . »

في العام التالي، توظّف سباستيان، وتركت أمه العمل؛ كانت آديلا قد دبّ فيها الهرم كثيراً. وكانت ترى أن سباستيان أتعبها بشكل رهيب؛ وأن التفكير فيه يعتصرها ويتركها قطعة جافّة. وكانت تقدّر أن المصير كان قاسياً عليها. فأوجب عليها الكثير، وأعطاها في المقابل القليل. كانت تتعزّى باللعب بالورق مع السيدة ميتشيتا، أو تتحدث من حين لآخر بالهاتف إلى زميلاتها القديمات في العمل ليقصصن عليها ما يجري في المكتب. بمعاشها التقاعدي الضئيل وبمرتَّب ابنها، كانا يعيشان وفقَ الحاجة، ويستمرّان أن بسكنى الحجرتين نفسيهما في البنسيون. كان فيهما أصيصان من السرخس كل منهما موضوع فوق سجّادة نظيفة منسوجة باليد؛ وكانت تفوح منهما رائحة ستائر عتيقة من مخمل أصابه العث.

في العمل، قليلاً ما كان سباستيان يكلم رفاقه. كان يحس بأن عقدَ صداقة والشروع في إقامة علاقة إن لم تكن شكليةً مَحْضة، خيانةٌ لرسالته في النوم. كان فارع الطول، نحيلاً إلى حد ما، ومخلوقاً من مادّة تشبه الشمع؛ مادة هشّة جداً وشفّافة ومختلفة عن مادة اللحم. كل ذلك كان يضفي عليه طابعاً مثيراً للغاية حتى كانت الفتياتُ ينظرن إليه ضاحكات وهن يضعن (البودرة) على أنوفهن، ويصلحن عيوب تسريحاتهن المتخيّلة، ويبدين أسفهن أن يكون شاباً حقاً. كانت عيناه زرقاوين عميقتين جميلتين جداً.

- عينا قدّيس . . .

كانت تعلق إحدى الفتيات،

- أو عينا فنان . .

ارتأت الأخرى.

- كلا! هما عينا محبّ كبير.

صلّحت لهما أكثرهن جرأة.

لكن سباستيان إذا أجاب عن أحد أسئلتهن أو نكاتهن، فكان يقوم بذلك بطريقة مهذّبة هادئة بسيطة خالية من المعنى حتى يشعُرن بالهزيمة وكأنه لايرى فيهن غير ثرثارات فارغات. فتخلّين عن إلقاء النكات أمامه، واستطاع هو أن يحصل على دور رجل ظلّ فعال مبيّناً لهن أنه من طينة أخرى، فليس لديه وقت ولا اهتمام ليشاركهن هذا الصنف من اللعب.

آكيليس مارامبيو رئيس القسم، وهو يكبر سباستيان بعشرة أعوام فقط، وضع هذا الأخير تحت حمايته. كان مارامبيو كثير الكلام. وحين يتكلم لايعنيه شيء آخر سوى أن يُصغى إليه. لكنه لم يتنبّه إلى أن سباستيان كان يستمع إليه دون أن يعيره اهتماماً. فقد تعود على أن يجلسه قربه ليقدّم له نصائح ثمينة.

- «سيكون لك مستقبل باهر في هذه المؤسسة، يا رينخيفو. أنا أعرف الناس جيداً، وقد تنبهت الى أنك شخص جادّ وقادر. قدِّر كم آلة حاسبة أرسلها إلينا الأمريكيون؟ آلات عصرية ثمينة، ما ينقصها شيء سُوى أن تنطق. ألا تعرف؟ ثمانون آلة. أتتخيل ماذا بقدرتنا أن نصنع بثمانين آلة حاسبة؟ حسن! أنا أقول لك يمكننا أن نصنع بها كل شيء... كل شيء إطلاقاً. ألا يبدو لك ذلك؟»

آكيليس مارامبيو كان قصيراً، ضئيل الحجم ذا شاربين صغيرين أسودين ناعمين جداً؛ ويضع نظارة ذات إطار ذهبي؛ وبدأ كرشه الصغير في البروز، وإن حاول إخفاءه وراء بزّاته الغامقة اللون التي كان يشدّها بالأحزمة. وكانت تغيب خلف لَغَده ملامح ذقنه المدببة المرتعشة مثل ذقن طفل يوشك أن يبكي إذا رُفِضت بعض مطالبه، أو ارتكب خطأ يمس النظافة والانضباط.

قبل سباستيان في إحدى المناسبات دعوة رئيسه لتناول الطعام في منزله بعد إلحاح شديد. نشر آكيليس مارامبيو منشفته حين جلس إلى المائدة وأدخل طرفيها في جيبي سترته الصغيرين، بانتظار تقديم العشاء مبيّناً لسباستيان سِحْرَ أن يكون للمرء بيت خاص، وامرأة خاصة ومذياع وغسالة خاصّان.

زوجه كانت آنذاك تجهّز بسمة بالموافقة دون أن تنفرج شفتاها، كمن يجـ

سلاحاً دفاعياً. فقد كان واضحاً أن عقلها لم يكن عند المائدة، وإنما في المطبخ، راجية السماء أن توفّق الطباخة الجديدة في شيّ اللحم فلا تحرقه.

وبعد مقدمات طويلة، تنحنح آكيليس وقال:

- «انظر يا رينخيفو: لديّ أمر أنوي أن أحدثك به».

- «أحقاً؟»

- «حقاً».

أجاب مارامبيو. وبعد فترة صمت، تابع:

- «انظر، الأمر يتعلّق بالتالي: في العمل، يقدّرك رفاقك كلهم، لأنك نشيط ومهذّب. لكنك تعلم أن المهم في العمل الوحدة، وأن نكون جميعاً أسرة واحدة. ودون ذلك، لاتوجد فعالية ممكنة. الناس يشعرون نحوك بالودّ، لكنني لاأستطيع أن أُخفي عنك أنك أخذت تفقده. يرون فيك إنساناً غريباً، متكبراً. يدعونك الى الحفلات والنزهات، ويقترحون عليك تناول قدح، أو رؤية فيلم، لكنك لم تقبل مرة واحدة. أتستطيع أن تقول لي لماذا؟»

- «ذلك أني قليلاً ما أخرج».

- «لكن، لماذا؟ أنت في سن عليك أن تخرج فيها وتتسلّى. لايمكنك أن تلعب بمستقبلك لأجل شيء في غاية التفاهة. لماذا لاتخرج؟»

- «أمي وحيدة، وعليّ أن أقف إلى جانبها».

- «هذا ليس عذراً. مؤكّد، لو انتبهت أمك نفسها إلى أهمية معايشتك رفاقك في العمل، ما كانت تبالي أن ظلّت وحيدة زوجاً من الليالي في الشهر، فأنت لاتحتاج إلى أكثر من ذلك، أقول لك هذه الأشياء كصديق ورجل ذي تجربة...».

- «حسن! أنا فوق ذلك ضعيف. يسرني جداً أن أنام. في الواقع، أنا أفضّل النوم على النزهة».

- «لاتقلْ لي إنك تقضي أيام السبت والأحد في النوم...».

- «نعم، وإن بدا لك الجواب غريباً، أنا نؤوم جداً».

آكيليس الذي انفجر وجهه بضحكة مفاجئة، رفع المنشفة إلى شفتيه ليستر فمه المملوء بالطعام، وصاح:

- «أسمعت يا سارا؟ أسمعت ما قاله هذا المغفّل؟ تسلية رينخيفو العظمى النوم. هذه أول مرة أسمع فيها شيئاً مماثلاً: لايخرج، ولاتعجبه أقداح الخمر، ولا يعاشر النساء، هذا عار تقريباً...».

- «أجل، بالطبع...» -وافق سباستيان، مشيّعاً قهقهات رئيسه بضحكة صغيرة.

- «سمعت الناس يتحدّثون عن ذوي عيوب كثيرة: عن ملاحقي النساء، ومدمني الكوكائين، والسكارى وغيرهم. لكنني أؤكد أنها المرة الأولى التي أسمعهم يصمون فيها أحداً بعيب اسمه النوم. أنت مجنون يا رجل. إذا ظللت تنام الوقت كله، فسوف تتجاوزك الحياة. والحياة علينا أن نعيشها. اتخذني قدوة لك!».

أحس سباستيان بالضيق، وأنه مذنب؛ فلم يجد وسيلة أخرى إلا أن يقدّم على الأقل، تفسيراً غامضاً:

- «يخطر لي أنني بنومي سأكتشف في الحلم شيئاً هاماً... شيئاً أهم... من الحياة».

- «وإذا قضيت حياتك كلها تسعى لتحقيقه وتموت دونه؟ يعني أنك أضعت حياتك كلها نائماً دون أن تصل إلى نتيجة».

- «يُخيّل إليّ أن ما سأعثر عليه عجيب جداً، وأنا مستعدّ للمخاطرة من أجله».

- «أتخاطر بأن تصبح ميتاً ذات يوم ويُرمى بك دون فائدة إلى المزبلة؟ آه! لا، لا، هذا لن يكون. هو جنون. الحياة يجب أن نحياها».

أخذ النقاش يفقد حيويّته. واقترح آكيليس ليقول شيئاً:

- «أراهنك أنك ستموت دون أن ترى شيئاً».

فأجاب سباستيان ضاحكاً:

- «حسن! إذا كسبتُ، فسوف تدفع نفقات جنازتي».

لم يتردّد آكيليس في القبول.

- «وإذا كسبت أنت، ماذا تريد؟» -سأل سباستيان.

ربّت آكيليس على كتفه قائلاً:

- إذا كسبتُ، سأدفنك في قبر عامّ مشترك. كيف يبدو لك ذلك؟»

- «لا بأس. جيد جداً!»

صافحا بعضهما توثيقاً للرهان.

- «لكن، كيف سنعرف من كسب؟»

سأل آكيليس وقد ساوره الشك.

- «أظنّ يكفيك النظر حينئذ الى وجهي حتى تعرف».

- «أنت مجنون . . .»

ضحك الاثنان معاً. وحين همّ سباستيان بالانصراف، نصحه آكيليس:

- «يبدو لي أنك تفتقر إلى الطاقة، إلى الحيوية. لماذا لا تجرّب الألعاب الرياضية، كما أفعل أنا؟ فقد اشتريت أثقالاً ومشدّات، وأقوم كل صباح بتمارين، لعلك تكتسب بذلك طاقة من أجل التسلية والخروج مع النساء».

وهذا عين ما كانت توحي به إليه أمه بخجل ويأس؛ لأن ابنها كان يرفض كل تسلية، حتى الذهاب إلى السينما. وإذا ما استطاعت أن تقنعه ذات مرة بأن يرافقها إليها، لايلبث أن يقبع في ظلمة القاعة ويشرع في النوم فوراً. دبّ الهرم في آديلا سريعاً. وأخذ الضعف يسري إلى عينيها وأذنيها، وكأنّ قواها كانت آخذة بالانطفاء والذوبان ببطء. لشد ما عانت!

كانت معاناتها موضوعها المفضّل في أحاديثها الى السيدة ميتشيتا التي صارت أصابعها المغطاة بالنمش تفتقر الآن إلى مهارتها القديمة في شغل الإبرة. لكنها، في المقابل كانت تُبدي شراهةً نامية للاستماع إلى هموم الآخرين. في إحدى المناسبات نقلت آديلا إلى ابنها ما كانت تفكر فيه على أنه قول من أقوال السيدة ميتشيتا:

- «تقول السيدة ميتشيتا التي طالما أحبتّك لأنها تعرفك منذ ولادتك، إنك فيما يبدو، تنفق حياتك عبثاً... يجب عليك أن تلهو، أو تخرج للاصطياف مثلاً. وتقول: من الضروري أن تتحرك وتتخلّى عن النوم. يبدو أنك مسحور كما تقول هي التي تعتقد أن هذه الأشياء...»

نفد صبر سباستيان، وبعد أن صرخ قليلاً خفّض صوته وقال:

- «مايغضبني أشدّ الغضب أن تروي لي هذه القصص وكأن السيدة ميتشيتا قالتها. لماذا لا تقولين لي بصراحة إنك هكذا تفكرين؟ لا أريد لهذا الأمر أن يتكرر، يا أمي. أنا أعمل برغبة كبيرة وأؤدي واجبي في إعالتك لأنني أحبك. يكفيني ألماً أنني لا أتذكّر حين استيقظ، مهما بذلَت من جهد، شيئاً، شيئاً من السعادة التي تختبئ وراء الباب. يخطر لي أحياناً أنه ينبغي لي أن أتخلّى عن كل شيء، وأعرّض نفسي للموت جوعاً إنْ لزم الأمر ليتسنى لي الوقت لأنام، وأنام، وأنام، وأنام... إلى أن يُفتح الباب. يساورني خوف من أن تكون حياتي مُفرطة في قصرها. وهكذا، إذا لم يكن لي الحق في النوم خلال ساعات الفراغ بعد العمل، فلن أبالي بأن أظل على قيد الحياة».

- «لستَ جديراً بالحياة ما دمت تقوم بما تقوم به». أجابته وهي تغادر الغرفة صافقةً الباب وراءها. واحتبست في حجرتها وهي تئنّ بصوت مرتفع لايمكن لابنها إلا أن يسمعه.

وفكر سباستيان أن محاولة شرح الأمر لأمه عبث. وكان عبثاً شرح الأمر لأحد. لأن ذلك كلّه كان أكبر منه ومن الناس. كان يجرفه نحو غاية مجهولة بعنف شديد، ويقتلعه من جذوره في الأرض، ويعزله ويقطع صلته بالعالم؛ وكان قلقه يزداد لعدم قدرته على تذكّر سعادته. وبدا له أن قضيّته تتسارع. حين كان طفلاً، كان ينام كأنه يتسلّى، أو كمن اكتشف لعبة غامضة قليلاً. لكنها في النهاية لعبة لا حول لها. في ذلك الوقت، كان ينام، حين يروق له ذلك، أو حين يُتاح له الوقت، أو ببساطة، حين يريد النوم.

وإذ كان يصفّي الآن حساباته مع البشر، ويُعيل أمّه ويشارك الى مدى معيّن في أنشطة الكائنات الحية، فكان يشعر أن له ملء الحق في أن ينام بجدّ وبوعي تامّ لهدفه، تشدّه ضرورة حقيقية تزداد إلحاحاً لمعرفة ما تشتمل عليه أحلامه. وما كان من قبل تزجيةَ وقت، صار الآن سبب وجودٍ يوليه كلّ ساعات فراغه الحرّة. وجود كان أسير ظمأٍ حادّ للحلم كمن يتعرّض لفقدان شيء أهم من الحياة ذاتها إن لم يستثمر جميع ساعات حياته، جميعها إطلاقاً. لكنه، حين يستيقظ، كان يجد الباب منيعاً، مُوصداً، مخلّفاً له فقط ومضةً، لهفةً حارقة لمعرفة ذلك الذي سيضيء له كل شيء، متيحاً له في آنٍ واحد، أن يلتقي بالكائنات الأخرى. غير أن آديلا أخذت تذوي وتشحب وتضعف حزينة وحيدة في قاع حجرتها في البنسيون، بسبب ما تجرعته من الهمّ، واجترّته من المصير القاسي الذي لقيته في هذه الحياة، والتفكير في المرات التي أتاح لها وضع ابنها الغامض، قليلاً من الرضا. وقد تحقّقت نهائياً من أنها ما كانت تعني شيئاً له. وإنما هي مجرد شيء جديد بشفقة مبهمة ضمن مملكة أشيائه. لم يكن يحسب لها حساباً وكأنما محاها من حياته، وجرّدها من

الحجم والوزن. لم تكن آديلا شبه صمّاء وعشواء حقاً فحسب، وإنما كانت تؤلمها ساقاها عند المشي. كانت تسعل كل الوقت. ذات يوم سعلت سعالاً شديداً، ولم تكن لديها القوى لتنادي أحداً يمكن أن يساعدها، فماتت وكأنها اقتنعت أخيراً من خطئها الحقيقي في الوجود.

خلع سباستيان قبّعته وقفّازيه لما عاد من مراسم الدفن، ووضعها على رخام المزينة. أغلق نوافذ حجرته، وطلب الى السيدة ميتشيتا أن توافيه بالطعام مرتين في اليوم؛ واستلقى لينام برغبة كبيرة، وكأنّ موت أمه حلّ العقدة الأخيرة التي كانت تربطه بالعالم. نام ثلاث أيام وثلاث ليال.

الأيام الثلاثة كانت إجازة وفاة منحه إياها مارامبيو بوجه محزون. لما استيقظ تحقق من أن الباب لايزال موصداً والنور محجوباً. لكنه كان يعلم الآن بيقين، وهنا المفارقة العجيبة، بأنه سوف يتمكن ذات يوم، وإن كان بعيداً جداً، من تذكّر كامل هذا الجانب من حياته الذي يختبئ وراء باب الحلم. والمسألة هي أن يبدأ في القيام بذلك، ولاشيء آخر. هذا الايمان الجديد دفعه إلى أن يرتدي ثيابه ويسرّح شعره ويخرج من البيت باتجاه المكتب شاعراً أنه تحرّر من أعبائه، وأنه واثق بنفسه، وقوي جداً. طلب أن يُعلم رئيسه بقدومه. فاستقبله هذاالأخير بعناق أخوي ودعاه للجلوس على مقعد كبير مريح في مكتبه. رفض سباستيان اللفافة التي قدّمها إليه آكيليس، وقال:

- «جئت لأقدّم استقالتي».

نهض مارامبيو واقفاً. ما كان يفهم هذا القرار المباغت جداً. لماذا؟ وبأي هدف؟ ومن أين سيكسب قوته؟ ألا يعلم أنه لو ظل في المؤسسة فسوف يكون له مستقبل يُحسد عليه؟ كيف يمكنه أن يكون غافلاً جداً؟ لكن سباستيان عرف كيف يظل ثابتاً على موقفه، وكأنه ما كان يرى ولا يسمع آكيليس.

وأخيراً، نظر الرئيس إليه بعد أن فرغ من هذا الحديث وحيد الجانب وسأله بلهجة فيها تعريض به:

- وبأي شيء ستهتم؟ أبالنوم كل الوقت؟

- نعم...

- ولأجل أي شيء...؟

وكان مارامبيو يكبح جماح غضبه.

- لاأدري. لكن يجب عليّ أن أقوم به، ينبغي أن أعرف..

وهنا نهض آكيليس وراح يجأر:

- لاتأتني بترّهات رؤاك! ما يحدث هو أنك انسان ضعيف مثل كل أولئك الذين يظنون أنفسهم أرواحاً مختارة. ومن أعطاك الحق بحياة ذات امتيازات؟ كلا! لاتقصّصْ عليّ حكاياتك. ماتريده هو أن ترتّب أمرك جيداً، وتكون ذا وضع مميَّز، بألا تعمل شيئاً، وأن تنام وتستريح. ولاتقصًّ عليّ رؤاك! لكنّي احذّرك بأنك ستموت ولن تصل إلى رؤية شيء. لابأس! الآن، انصرف. آه! أريد أن أحذرك أيضاً لكي تتذكرني: لاتقصدني بعد اليوم، راجياً أن أساعدك. كل صداقة بيننا انتهت هنا. فأنا لستُ صديق متسكّعين محترفين. وإذا أردت أن تضعف وتقضي الوقت متبطّلاً، فعليك أن تتحمّل النتائج حتى النهاية».

لئن شعر سباستيان بجرح في كرامته، فقد ظل ينظر إلى مارامبيو بهدوء، وسأل:

- «والرهان؟»

ضحك آكيليس باحتقار.

- «وتواتيك الجرأة على متابعة النكتة حتى هذه اللحظة؟ حسن جداً! فليبقَ هذا الرهان الرابطة الوحيدة، بيننا. لكنك لا تعلم كم أرغب في أن أضعك في قبر مشترك!»

لما خرج سباستيان الى الشارع، تنفّس بعمق وكأنه يقوم بذلك لأول مرة. وأخيراً ها هو الآن سيد نفسه دون حبال تشدّه إلى شيء، أو إلى أحد من الناس. وصار بمستطاعه أن يكرّس حياته كلها للنوم. ومع كل ثانية ينامها زيادة، يسير مقترباً من ذلك الباب الذي قد يصبح أمر فتْحه أشدّ احتمالاً. وماذا يهمه إذا ظنّه الناس غير مفيد؟ وهل هو في واقع الحياة، غير موظّف بسيط في مؤسسة للاستيراد، ويقطن «بنسيون» له رائحة ستائر لعب بها العث؟ أما النوم، فسيزوّده، في المقابل، بأسلحة قوية كبيرة جميلة دون أن يراها؛ وسيمدّه بألوان بليغة ونظام كامل من الوضوح، وبأشياء ضخمة ثرّة. قد يجعل سباستيان رينخفو حدود الظلمات تتراجع بشكل من الأشكال. نعم! هو الآن مطمئّن إلى ذلك. سيكرّس حياته كلها للقضيّة التي كان يجود عليها من قبل بلحظات معدودات. وسيحيا بطريقة تمكنه من النوم أكبر قدر من الساعات الممكنة دون أن يسمح بأن تعترضه ضرورات ما نسميه «الحياة الواقعية». لم يعد لديه موجب للالتفات الى ما هو غير ظلال كالأكل والرفاهية وحُسن الثياب واللهو والناس. وهكذا، ما دام يعيش قريباً من الباب، فسوف يكون مستعداً لكل لحظة يتجلّى فيها النور. الوسيلة الوحيدة لبلوغ ذلك الهدف، كانت بأن يتخلّى عن كل شيء. وإذْ لم تعجبه المدينة أبداً، خاصة في الربيع كما هو الحال الآن، فقد باع الأثاث وصفّى كل ارتباطاته وودّع وداعاً لا لقاء بعده، السيدة ميتشيتا التي غرقت في الدموع، وصاحت: «أنت مجنون يا بني، أنت مجنون». وغادر المدينة عبر طريق يتجه جهة الشمال.

سرعان ما طوّقه جو الريف مخفّفاً من يقظته حين أمدّه بهواء من حلم. أشجار الصفصاف كانت تهدهد رؤوسها قرب جداول بطيئة قاتمة. أما الهواء الذي كان يعبث بذوائبها الحزينة، فكان يمدّ كل نبتة، وكل غصن وكل ورقة بمفردة مختلفة. هنا ترى صفاً أزرق من الأوكاليبتوس الفضّي الطري. وهناك دروب الأرض الخصيبة الحمراء حيث كان الأطفال يلعبون مع جموع لاتنتهي من كلاب الفقراء؛ دروب تقوده، نحو دكّان تشي به رائحته من بعيد؛ أو إلى ذراع من دخان يحيّيه من فوق سطح كوخ شبه مخفي بين الأشجار. قشرة كل شجرة كانت تنشر خريطة زمن ووظيفة مختلفين. أحس سباستيان وسط كل ذلك بأن المسافة التي

كانت تفصل «الواقع اليومي»، عن الواقع الآخر، عن الواقع الحقيقي الأصدق أخذت تتقلّص. وكأن كل ما في هذا العالم الخارجي الجميل ينضمّ الى واقع الحلم المخفيّ.

سباستيان الشاب القوي والمسرور بقدوم الصيف، راح يعمل هنا، ويعمل هناك في المزارع وفي الحقول. في بعض الأماكن ساعد على غسل الأغنام، وسُمح له بأن ينام في الممر. وفي أماكن أخرى شارك في قطف عباد الشمس؛ ثم كلّف ببذر درنات البطاطا في الأرض السوداء. وبعد ذلك تابع طريقه، بينما كانت الزرازير تنطلق كالحجارة مهدّدة هشاشة زرقة السماء. بالمال الذي كان يكسبه في ثلاثة أيام، كان يستطيع الكفّ عن العمل لمدة أسبوع. كان ينام خلال تلك الفترة، تحت أشجار التفّاح المثقلة بالفواكه، أو في العراء، أو في متّبن. سفعت الشمس وجهه وذراعيه. أما عيناه، فكان يغمرهما نور هادئ. كان يعود إلى المدينة من وقت لآخر؛ وكان في العادة، يلمح آكيليس مارامبيو الذي ما يكاد يراه حتى يشيح ببصره عنه، أو يعبر الطريق بسرعة كيلا يكلمه، رافعاً من بعيد إصبعاً مغطّى بالقفاز، وكأنه ينتقده، أو يذكره بشيء ما.

شيئاً فشيئاً، أخذ يحدث لسباستيان شيء غريب: صار من المُحال عليه ضبط نومه. أصبح لايستطيع «الشروع» في النوم بحرية، أو حين يرغب في ذلك كما في الماضي، لأن النوم استولى على إرادته مكتسباً استقلالاً كان يستبدّ به؛ وصار الآن يهجم عليه فجأة ويدركه على حافة الطريق مثلاً، ويرى نفسه مضطراً للتكوّم في ذلك المكان نفسه وسط الأعشاب البرية الوسخة لينام. كان يحس بقلق أن نومه يطفر من مكانه ويغمر حياته كلها. كان يسقط نائماً في كل مكان، ليلاً أو نهاراً؛ في البرد أو تحت الشمس؛ أثناء المطر أو في ساعات العمل. وحين يستيقظ كان يأسه يزداد أمام الذكرى التي كانت تنفيه. لكنه كلما ازداد نوماً، زاد عذابه بإدراكه نفسه منفياً عن سعادته الحقيقية، ويزداد إيماناً بأنه سيرى ذات مرة الباب مفتوحاً على مصراعيه. كانت مقاربة عجيبة، ما كان يتذكرها عند الاستيقاظ. ذات يوم سلّم

منجلاً، ووُعد بمبلغ محترم من المال إن هو حصد أعشاب مرعى خيول وخزنها في المستودع؛ وفكر أنه بهذا المبلغ سيحصل على ما يكفيه لينام شهراً كاملاً دون الاهتمام بشيء آخر. وما قد يحدث له، خلال شهر من النوم لايمكن أن يحصى. بصدره العاري، جاب المرعى من أقصاه إلى أقصاه واضعاً منجله فوق كتفه. أغصان التين الغضّة كانت توشوش في الريح التي فكّ عقالها منذ قليل. وفي ظلها الأزرق الكثيف حطت فوق الطحلب بطتان بيضاوان كقميصين غُسلا حديثاً، وسقطا بفعل الريح بهدوء. استمع سباستيان إلى نعيق الغربان، ونظر إلى السحب الثقال وهي تجري فوق أصابع الحور؛ قال في نفسه: «ينبغي لي أن أبذل جهداً. يجب عليّ أن أحصد المرعى وأخزنه فوراً، لأن العاصفة ستهبّ هذه الليلة. . .»

اشتغل خلال المساء كله. كانت السحب تزداد قتامة وانخفاضاً شيئاً فشيئاً. حصد سباستيان المرعى بعزم من يصارع لينقذ نفسه وسط عاصفة بحر من نبات. ولما فرغ من الحصاد، أحسّ بأنه مهزوم. نظر الى السماء التي أخذت تساقط المطر؛ وخلال لحظة واحدة، استولى عليه النوم بشكل لايقاوم؛ وظل نائماً فوق المرعى المحصود والمطر يهطل عليه وعلى المحصول الذي لن يلبث حتى يتعفّن. ولما استيقظ تلقّاه معلموه غاضبين لأنه ترك المحصول يتبلّل ورفضوا أن يدفعوا له أجره. غادر سباستيان وسار أياماً طوالاً، لأن الإشاعة كانت تنطلق من مزرعة إلى أخرى بأنه لايمكن الاعتماد على هذا الشاب.

صار من الصعب عليه الحصول على عمل. ففي كل مكان تُوكل إليه مهمة، مهما كانت ضئيلة، يحدث له الأمر ذاته: يظل نائماً دون أن يستطيع السيطرة على نفسه، فإذا عُهد إليه بمراقبة حلّة، يحترق الطعام؛ وإذا طُلب إليه حراسة طفل صغير، سقط من السرير؛ وإذا طلب منه أن يقود عربة محمّلة بالتبن، يأخذ منذ بداية الطريق، يحثّ الثيران لسوقها. لكنه لايلبث أن يغطّ في النوم فجأة وتظل العربة مكانها مهجورة. علائم الإخفاق كانت تتجلّى في مشيته وصوته ومزق ثيابه.

- «بدأت أصبح عجوزاً. . .» كان يفكر.

قد يكون من السهل له أن يستسلم للموت بأن يُلقيَ بنفسه أمام شاحنة، أو يقفز من فوق جسر، لكنه لم يكن مستعداً للقيام بذلك، لأنه ببقائه على قيد الحياة فقط كان بمستطاعه أن يتابع النوم؛ كان يجلس عند نهاية الطريق منُهكَ القوى. أسوأ ما في الأمر اضطراره الى العمل كيما يعيش. لكن، لايرغب أحد في أن يُسند إليه عملاً. كان الناس يزورّون عنه، وكأنهم يخشونه، أو يخشون أن يجلب عليهم سوء الحظ. ودفعه اليأس ذات مساء، فقصد مشفى للعلاج النفسي، راجياً أن يجد من يرشده للتحكّم في نومه. فحصه طبيبان شابّان، جادّان، طيّبان كأنهما ملاكان يرتديان ثياباً بيضاً. استمعا إلى قصتّه بصبر:

- «نعم؛» -قال أحدهما- «لكن ما بك ليس مرضاً...»

- «ولانستطيع علاجك هنا». -علّق الآخر بشيء من الحزن.

- «لكنني أخشى أن أموت يا دكتور». -توسّل إليه سباستيان.

- «إذا كنت تقضي نهارك نائماً، ألا يشبه أن تكون ميتاً؟»

- «كلا! كلا! أنا بحاجة الى قليل جداً من الوقت، يا دكتور، لأن الباب على وشك أن يُفتح».

- «الباب؟ أي باب؟»

أدرك الطبيبان أن سباستيان من هؤلاء الأشخاص الذين يعانون قليلاً من الاضطراب. لكن اضطرابهم ليس كبيراً حتى يحتاجوا إلى علاج مكثّف. فهناك فيضٌ من المرضى حقاً، وكان من الضروري تكريس الوقت لهم. ومع ذلك، لمحا عنده نوعاً من عدم الأمان. فما كان يدري إلى أين يسير؛ وكان يخشى أشدَّ الخشية أن يموت قبل أن يفتح ذلك الباب ا لسري. تأثّر الطبيبان بوضعه، فسمحا له بالإقامة في المشفى أياماً عدّة. لكنهما كانا يقومان ذات ليلة بجولة مشتركة على القاعات فوصلا إلى سريره. ولما شاهدا بسمته والغبطة التي تضيء وجهه، رأيا استحالة أن يظل في المشفى من ينام بهذه السكينة الكبرى. فصرفاه في اليوم التالي.

كان سباستيان يدرك أن النهاية أمست قريبة. فلم يعد لديه شيء يعمل به. كان يهيم على وجهه في الشوارع والطرقات، ويتنقل من بيت إلى بيت ومن مزرعة إلى أخرى متسولاً. ما كان يأبه لشيء مما يحيط به. وكأن ما يحدث لا يعني له شيئاً البتة. كان يعيش في عالم شفقيّ مسكون بالظلال والأصداء والانتظار. أطلق لحيته وأرسل شعره وغزاه الضعف. كان يسير في الطرقات العامة وبين قضبان السكك الحديدية وفي شوارع المدينة وجاداتها. وكان يستلقي حيث يدركه النوم، حتّى ظنّه حصان ذات مرة ميتاً، فدنا منه ليتحسّس وجهه.

كان الناس يبتعدون عنه كأنه ساحر أو شرّير، أو مجنون. لكنه ظلّ على دأبه في النوم مطمئناً إلى أن الباب حين يُفتح سيُهرع إليه هؤلاء الناس الذين يفرّون منه.

كان يقصد المدينة أحياناً، حيث يمكنه الحصول على الطعام بيسر. ففي السوق يستطيع أن يسرق رغيف خبز، أو قطعة سمك مقليّ. لكن الناس كانوا يتعرّفون عليه عموماً. وهكذا التقت به وجهاً لوجه، امرأة تختنق تحت ثقل ما تحمله من أكياس، فصاحت به:

– ألا تخجل من نفسك أيها النؤوم الضعيف؟ أنت تتسوّل وتسرق بدلاً من أن تعمل. أنت معرّة البشر. يجب أن تُطرد من المدينة. أو تُوضع في السجن. ولستَ عجوزاً بعد حتى لا تستطيع العمل.

لكنه لم يكن يستطيع أن يعمل. فقد كان النوم يستولي عليه فوراً، وكأنه يشعر بالخزي إن أبعده شيء ما عن موهبته تلك. ضُبط ذات مرة، وهو يسرق، فأُودع السجن الذي لم يلبث فيه إلا قليلاً حتى أطلق سراحه.

لكنه وُصم على أنه جانح، ومن كان يبتسم له من قبل بشيء من الشفقة، صار الآن، بعد جنحة تسكّعه، يجتاز الطريق إلى الجهة الأخرى حين يراه مقبلاً.

حل شتاء؛ ثم شتاء آخر. ومع هذا الشتاء الأخير زادت ثقة سباستيان بأنه أمسى على شفا الموت. فقد خارت قواه. لكن، كان يبدو له أنه لو استطاع العيش

أسابيع أُخَر، لو لقي طعاماً يأكله، أو ملجأ يأوي إليه، لو استطاع النوم، فسوف يتذكر أخيراً ويفهم ويتكلم. أما موته قبل هذا الأوان فقد يكون الإخفاق بعينه؛ لكن أمله كان قوياً، وهو الشيء الوحيد عنده الذي لايقبل التذبذب. إنها النهاية، لكنها، ربما كانت النصر.

كان البرد قارساً للغاية، حتى كان سباستيان يعثر أحياناً على عصافير ميتة تحت الأشجار السود في الحديقة. كان ينفخ على ريشها الرمادي محاولاً انعاشها؛ لكنها ما كانت تتحرك لأن الصقيع جمّدها. في المدينة، كان يقيم تحت أحد الجسور، ويحيط نفسه بكلاب مقملة ليحصل على الدفء، ويتغطّى بصحف عتيقة كيلا تخترقه الريح. واستطاع أن ينام كثيراً. أن ينام كل الوقت تقريباً. كان يعلم أن الأوان آن كي يتذكر ذلك الأمر؛ وأن الأوان آن ليفتح الباب. المسألة كانت في أن يتشبث بالحياة أياماً معدودات؛ أن يجد قليلاً من الخبز وأن يحمي نفسه من الجليد، لكن ذلك كان صعباً. أحياناً، كان يُلصق أنفه على نافذة دكان قصابة، ويقف ناظراً الى لحم الحيوانات المجوّفة الأحشاء والمتدليّة من الكلاليب. وحين يفتح أحد الزبن الباب وهو خارج، كانت رائحةالدم الكثيفة تهدّئ من جوعه وبرده قليلاً.

وخطرت له ذات يوم فكرة.

سيزور آكيليس مارامبيو الذي لايبعد منزله عن هنا غير قليل. فلعلّ مشاعره تتحرك نحوه حين يرى بؤسه؛ ولعله ينسى ما قالاه منذ سنوات خلت. منذ، منذ سنوات، فيقدّم له طعاماً ويأويه بعض الأيام، وإن صار مارامبيو في المرات الأخيرة ينكره إذا التقى به في الشارع. لعل، ولعل.

صنع سباستيان قلنسوة من أوراق الجرائد ليحمي رأسه. واجتاز المساء البارد، والشوارع، وظلال البيوت والأشجار، والمصابيح المطفأة، ببطء ناظراً من حين لآخر إلى السماء الرمادية التي تشقّها الأسلاك، حتى وصل بيت مارامبيو. فوق السطوح، كانت السحب تطمس تقريباً كل ما تبقّى من حمرة الشفق. وكان الليل يرخي ستائره، والثلج على وشك أن يسقط. ضغط سباستيان على جرس

بيت آكيليس مارامبيو. فتحت له الباب خادم تلبس ثوباً أسود فوقه صدار من الموسلين الأبيض.

- «أأستطيع أن أكلم آكيليس؟» -سأل سباستيان

- «الدون آكيليس؟» -رددّت الخادم لقب «دون»- إنه يتناول الطعام. ادخل من الباب الخلفي في الشارع الآخر. هذا الباب خاص بالزوّار. من يسأل عنه؟»

كان لفظ اسم سباستيان رينخيفو مثل فتح بويب قفصٍ متيحاً له الهرب إلى الأبد كأنه عصفور. انتظر لصق الباب الخلفي في زقاق كانت الريح تبكي فيه مأسورة. جعل سباستيان قبعته المثلّثة المصنوعة من ورق الجرائد، تغطس عميقاً في رأسه، وربط جيداً الخرق العتيقة التي تغطي قدميه. وجلس ينتظر في عتبة البيت دون وجه ودون اسم.

وفُتح الباب أخيراً. ظهر آكيليس مارامبيو وقد اعتراه شيء من السمنة مع تقدمه في السن، واضعاً منشفة بيضاء معقودة تحت عنقه.

- «أتريد أن تكلمني؟» -سأل

- «نعم... ألا تتذكرني؟»

مسح مارامبيو بطرف منشفته البخار الذي شكّله البرد على نظارته. خلفه كان بعض الأشخاص يضحكون جالسين إلى مائدة عامرة في جانب من الحجرة التي تظهر من الباب.

- «لاأتذكرك. أسرع وقلْ لي حاجتك. فالطقس بارد، و(الكريب) منتشر». وتجمّدت دمعة في جفني سباستيان.

- «ان لم تقل لي حاجتك، فسوف أغلق الباب». هدّد مارامبيو.

- «أنت لاتعرفني!» -قال سباستيان متلعثماً.

- «لا، يا رجل، أنا لاأعرفك. كيف تريدني أن أعرف جميع متسكّعي المدينة؟ زد على ذلك، بهذه اللحية، وهذه السحنة...»

- «جئت أطلب منك طعاماً آكله، ومأوى من أجل أيام معدودات. أنا على وشك الموت. ولاأستطيع حتى أرى الباب مفتوحاً... من فضلك».

وألقت سحابة من محاولة التعرّف بظلالها على وجه مارامبيو.

- «حتى ماذا؟ وأي باب؟»

- ... الباب، وقد أرى...

- «لا، لا، لا... اذهب من هنا، لست على وشك الموت، ولم تصبح عجوزاً بعد حتى لاتجد عملاً. أنت أردت أن تكون ما أنت عليه.. انصرف! وطاب ليلك. أنا لاعلاقة لي بك أبداً..».

وأغلق الباب.

وتكوّم سباستيان على خير ما يستطيع لينام في العتبة.

خلال الليل تصدّعت السماء. وكانت النجوم ترفّ بجفونها بصعوبة، وتنظر محدّقة من سماء مرعبة سوداء عميقة جعلت صقيعاً قاسياً يتشكّل. صباح اليوم التالي -وكان يوم أحد- كانت السماء صافية غاية الصفاء؛ كانت زرقاء هشّة، ناعمة كأنها بطاقة هائلة الأبعاد. لم تكن الشمس تبثّ الدفء في الشوارع، لكنّ ضوءها النقي، كان يضيء كل الزوايا والحدود.

دون آكيليس وزوجه وابنتاه الصغيرتان، وهما في السادسة والسابعة من العمر، خرجوا باكراً لحضور القدّاس. شهدوا الذبيحة المقدّسة بكل تقوى، وعادوا ببطء عبر الدروب المشمسة محيّين معارفهم، متوقّفين من حين لآخر ليخبطوا الأرض بأرجلهم، ويصفقّوا بأيديهم كيلا تتجمّد أصابعهم. ماريا باتريثيا، وماريا إيزابيل، وهما بقامة واحدة تقريباً، وتضعان على رأسيهما قبّعتين من جلد أبيض وترتديان معطفين من الجلد نفسه، كانتا تتقدّمان أبويهما بخطوات معدودات ؛ كانتا مزهوّتين لأن المارّة كانوا يبدون إعجابهم بحسن مظهرهما وأناقة ثيابهما.

لما دخل أفراد عائلة مارامبيو الأربعة الزاروب الذي يؤدّي الى باب البيت الخلفي انقطع حبل البخار الذي كان يتصاعد من أفواههم. توقّف آكيليس وزوجه مكانهما، وبحثت الطفلتان عن ملجأ قرب ساقي أبويهما وهما توشوشان. فعلى عتبة بيتهم كان يرقد شكل بشري غزير الشعر، مغطّى بصحف رطبة. اقتربوا منه بحذر. حرّك مارامبيو الشكل بقدمه، وتمتم:

- «إنه ميّت...»

انحنت المرأة لترفع القبّعة التي تغطّي وجهه، فصاح بها مارامبيو:

- «لاتكوني مغفّلة. دعيه على حاله. لماذا تريدين رؤية وجهه؟».

لكن المرأة كانت قد رفعتها. وظهر وجه الميّت من وراء لحيته وسحنته وقد تحوّل الى شكل آخر يعلوه تعبير عن بهجة وفرح وسكينة تامّة، حتى صاحت ماريا باتريثيا لما اقتربت منه دون خوف:

- «انظر، ما أجمله، يا أبي! يبدو أنه كان يرى...».

- «اسكتي، لاتقولي حماقات». -صاح بها مارامبيو غاضباً.

- «يبدو أنه كان يرى...».

قبل أن تتمكن ماريا ايزابيل أن تقول ما الذي كان يبدو أن الميت يراه، أمسك مارامبيو ابنتيه بعنف ودفعهما إلى دخول البيت. أطاعتا وهما تمسكان بأيدي بعضهما البعض دون دموع كما تفعلان عادة حين يعارضهما والداهما. وراحتا تتحدّثان عن جمال الموتى آخذتين على نفسيهما عهداً بألا تصدّقا أبداً الناس الكبار الذين يخافون منهم خوفاً كبيراً. أخبر مارامبيو الشرطة أنّ متسكعاً وُجد في الصباح ميتاً في عتبة باب الخدمة. لكن مارامبيو رجل خيّر. وفوق ذلك، لديه إحساس مدني، فرأى أن الجثة، إذ وُجدت عند عتبة بيته، فلن يُلقي بها إلى قبر عام مشترك، وسوف يتحمّل نفقات الجنازة. طبعاً، لن تكون جنازة من الدرجة الأولى، لأن ذلك سيكون محالاً، وإنما جنازة من الدرجة الثالثة. وهي بعد كل شيء بالنسبة لمتسكّع دون اسم، ترف ما كان يضعه في حسبانه.

نزهة

حدث هذا حين كنت صغيراً جداً؛ أي حين كانت عمتي ماتيلده، وعمّاي غوستافو وآرماندو وأبي نفسه لايزالون على قيد الحياة. والآن، صاروا كلهم أمواتاً؛ أعني أفضّل الافتراض أنهم أموات، لأن ذلك أسهل كثيراً. فقد فات الوقت على تعذيب النفس بأسئلة لاتُطرح في الوقت الملائم. لاتطرح أسئلة لأن الأحداث يبدو أنها شلّت حركة الإخوة وجعلتهم في حالة رعب؛ ثم شرعوا في بناء جدار من النسيان أو اللامبالاة التي غطّت على كل شيء آخر ليصبح بالمستطاع السكوت دون الحاجة للعناء بفرض فروض عاجزة. ربما لم يكن الأمر على هذا النحو. ولعل خيالي وذاكرتي خاناني.

وبعد كل شيء، لم أكن حينئذ إلا طفلاً ليس عليهم أن يشركوه بهموم تحريّاتهم، إن كانت هناك تحريات، ولا بنتائج محادثاتهم. فيما يفكرون؟ كان الإخوة يُسمعون أحياناً يتحدثون بهدوءو بطء كعادتهم، محتبسين داخل المكتبة. لكنّ سماكة الباب كانت تطمس معاني الكلمات متيحة لي أن أسمع فقط صدى أصواتهم الخفيض والموزون. ماذا يقولون؟ كنت أرغب في أن يتكلموا حول أمر هامّ حقاً، ويتخلّوا عن الاحترام البارد المتبادل فيما بينهم؛ وأن يفصدوا همومهم وشكوكهم. لكني ما كنت أؤمن بأن شيئاً من هذا قد يحدث. لأن طوافي قرب جدران الدهليز العالية، وقرب باب المكتبة عززّ في ذهني الثقة بأنهم اختاروا النسيان. كانوا يجتمعون فقط ليناقشوا كالعادة دائماً، دعاوى قضائية موكلةً إليهم، لأنهم كانوا مختصّين في القانون البحري.

والآن أفكر: لعلهم كانوا على صواب في محو كل شيء. فما فائدة العيش برعب باطل بأن ترى نفسك مرغماً على القبول بأنّ شوارع مدينة يمكن أن تبتلع كائناً بشرياً، وتلغيه ثم تبقيه دون حياة أو موت مُعلَقاً ببعدٍ، هو أشدّ خطراً من أيّ بعد آخر له اسم!!

ومع ذلك...

فاجأت أبي، ذات يوم، بعد أشهر من ذلك الحادث، وهو يرقب الشارع من شرفة القاعة في الطابق الثاني. كانت السماء مُدلهمة كثيفة، والهواء الرطب يرهق أوراق الآيلنطس المتهدلّة الكبيرة. فدنوت منه، وعندي لهفة لجواب يتضمّن أدنى توضيح. وهمست:

«أبي ماذا تفعل هنا؟»

ولما أجابني انطبق شيء ما فجأة على يأس وجهه، كصفقة باب يُغلق على مشهد فاضح.

- «ألا ترى؟ إني أدخّن».

وأشعل لفافة.

لم يكن كلامه صحيحاً، لأنني كنت أعلم لماذا يَرْصد الشارع من طرفه الأقصى إلى طرفه الأدنى بعينيه القاتمتين، رافعاً يده من حين لآخر إلى عقب اللفافة الكستنائي. كان يساوره الأمل في أن يراها تظهر، في أن تعود كشيء يطلع من تحت أشجار الرصيف تتبعها كلبتها البيضاء. أكان يأمل أن يحصل بذلك على شيء مؤكد؟ شيئاً فشيئاً أدركت أن ليس والدي وحده، وإنما عمّاي أيضاً كان يراقبان من نوافذ البيت، وكأنهم كانوا يختبئون جميعاً عن بعضهم البعض دون أن يعترفوا بذلك، ولا لأنفسهم؛ ولو أن أحداً نظر من الرصيف لرأى ظلّاً كل منهم يقف لصق ستارة، أو وجهاً شاخَ من المعاناة، يلوح من وراء الزجاج.

- ٢ -

البارحة، مررتُ أمام البيت الذي كنا نقطنه. منذ أعوام لم أمرَّ من هناك. في ذلك الوقت كان الشارع مُبلّطاً بخشب الكبراش؛ ومن تحت أشجار الآيلنطس الكثيفة، كان يمر من حين لآخر، (ترام) صاخب ذو قضيب حديدي حرّ. والآن، لم يعد البلاط الخشبي موجوداً، ولا الترام، ولا الأشجار على الرصيف. لكن بيتنا لايزال حيث هو: فسيحاً، منتصباً ككُتيّب محصور بين «مجلّدات» الأبنية الجديدة الضخمة، ذات المحلاّت في الطابق الأرضي، ولوحة كبيرة تعلن عن قمصان داخلية فخمة، وتغطي شرفتين في الطابق الثاني.

حين كنا نقطن هناك، كانت كل البيوت بارتفاع بيتنا وبحجمه الصغير، وكانت الحارة فرحة دائماً بألعاب الصغار في بقع الشمس على الرصيف، وبنكات خادمات البيوت الثريّة حين يعدْن من شراء الحاجيات؛ لكن بيتنا لم يكن فَرِحاً، أقول هكذا «لم يكن فرحاً»، بدلاً من قولي «كان حزيناً»، لأن هذا ما أريد قوله بالضبط. فالكلمة «حزين» ليست صحيحة هنا، لأنها تتضمّن مدلولاً إضافياً محدّداً للغاية، تتضمن ثقلاً وأبعاداً خاصة. وما كان يجري في بيتنا، هو العكس من ذلك تماماً: كان غياباً، وخطأ لا يُصلح لأنه مجهول؛ كان شيئاً ما لاوزن له، لأنه غير موجود.

لما ماتت أمي قبل أن أتمّ الرابعة من عمري، رأى أبي ضرورة وجود امرأة إلى جانبي تُظلّلني برعايتها. وإذ كانت العمة ماتيلده المرأة الوحيدة في العائلة، وكانت تقطن مع عمي غوستافو وأرماندو، فقد جاء العزّاب الثلاثة للإقامة في بيتنا الذي كان فسيحاً وشاغراً.

كانت العمة ماتيلده تقوم بواجباتها نحوي بتلك العناية التي تميّز كل ما تعمله. أنا لم أكن أشكّ في أنها تحبني. لكنني لم أستطع أبداً أن أحسّ بهذا العطف كتجربة ملموسة تجمع بيننا. كان في عواطفها شيء من التحجّر شبيه بما هو موجود عند رجال العائلة. الحبّ عندهم كان محصوراً ضمن حدود كل ذات فرديّة دون أن يقفز فوق تلك الحدود ليعبّر عن ذاته ويتّحد بالآخر. في نظرهم، التعبير عن العواطف هو قيام كل منهم أتمّ قيام بواجبه إزاء الآخرين، خاصة عدم إقلاق الراحة، عدم إقلاق الراحة أبداً. لعلّ التعبير عن العاطفة بطريقة أخرى، كان غير ضروري لهم، لأن لهم تاريخاً مشتركاً، وماضياً مشتركاً تمّ التعبير خلاله عن كل شيء حتى التُخمة. وكل هذا الماضي الممكن من الحدب تحوّل الآن إلى أسلوب تحت شكل من الأفعال الواثقة، أو الرموز العملية التي لاتتطلّب توضيحاً كبيراً. وإنما ظل الاحترام صلة وصل بين الإخوة الأربعة الصامتين المعزولين الذين كانوا يجوبون ممرّات ذلك البيت المظلم الذي كان يشبه كتاباً فيطلّ بجانب من متنه العريض على الشارع.

بالطبع، لم يكن لي تاريخ مشترك مع العمة ماتيلده. وأنّى لي ذلك، وأنا لم أكن سوى طفل يفهم نصف فهم دوافع الكبار المتصلّبة؟ كنت أتمنّى بلهفة أن ينهار هذا الودّ المبطّن، وأن يجري التعبير عن النفس بطريقة أخرى، باندفاع، أو بحماقة مثلاً. لكن عمتي لم تكن تستطيع أن تخمّن رغبتي هذه، لأن اهتمامها لم يكن منصباً عليّ. أنا كنت شخصاً محيطياً في حياتها، أتماسّ معها في الحالة القصوى، ولم أكن مركزياً أبداً. لم أكن مركزياً لأن مركزها كلّه كان يحتلّه أبي وعماي غوستافو، وآرماندو. عمتي ماتيلده كانت فتاة وحيدة في عائلة من الذكور المتألقين. وفوق ذلك، كانت قبيحة المنظر. ولما رأت أن زواجها بعيد الوقوع، كرّست نفسها للسهر على راحة هؤلاء الرجال، حين جاؤوا بها للعناية بالثياب، وإعداد أطباقهم المفضلّة.

كانت تؤدّي مهامها دون أدنى شعور بالسخرة، فخورة بالدور الذي تقوم به، لأنها لم تكن تشك في سموّ إخوتها وجدارتهم. زد على ذلك، كان لديها مثل سائر النساء، هذا الايمان الغامض القويّ في أن الرفاهية الجسدية، إن لم تكن العنصر الرئيس، فهي العنصر الأول، بالتأكيد، في الحياة. إذاً، انتفاء الجوع والبرد والمنغّصات يشكّل القاعدة لكل سعادة من طراز آخر. ذلك لايعني أنها كانت تعاني ثغرات في هذا المجال. وإنما كانت هذه الأمور تثير أعصابها. فإذا رأت البؤس أو الضعف حولها، كانت تتخذ اجراءات فورية لإصلاح ما هو، ولا ريب، أخطاء في عالم كان يجب، يجب أن يكون كاملاً. من جهة أخرى، ما كانت تتساهل بشأن القمصان ما لم تكن مكويّةً كياً رائعاً؛ ولا اللحم إن لم يكن من النخب الأول؛ ولا بشأن الرطوبة التي تتسلّل بسبب الإهمال إلى علب تبغ (الهابانا). وهنا، كانت تكمن قوّة ماتيلده العتيدة، مغذيّة بها جذور عظمة إخوتها، قانعة بأن يحموها لأنهم رجال أعلم وأقوى منها.

بعد العشاء، كانت العمة ماتيلده تصعد، خضوعاً منها لتقليد قديم جداً في العائلة، إلى غرف النوم، فتدخل كلّ غرفة من غرف إخوتها لتهيّئ الأسرّة، وترفع الأغطية بيديها المعروقتين، فتضع شالاً عند قدم سرير هذا الأخ، لأنه شديد التأثر بالبرد؛ وترفع مخدة من الريش عند رأس سرير ذاك الأخ الذي كان يقرأ قبل أن يغفو، ثم تترك المصابيح السهارية مشتعلة قرب الأسرّة العريضة، وتنزل إلى صالة البيلياردو، وتنضمّ إلى إخوتها فيتناولون القهوة معاً، ويلعبون بعض الأدوار، قبل أن ينسحبوا فيما يشبه الإيعاز منها، ليرتدوا مناماتهم الملقاة على الملاءات البيض، وهي شبه مفتوحة.

لكن العمة ماتيلده ما كانت تسوّي سريري أبداً. وحين كانت تصعد إلى غرفتي، كان قلبي يتوقّف على أمل أن أجد سريري وقد سوّته بالدقّة المعروفة عن يديها. وكان عليّ أن أقنع بما تقوم به الخادمة المكلّفة بهذا العمل وإن يكن بطريقة أدنى. لم تمنحني أبداً هذه العلامة من الأهمية، لأنني لم أكن أخاها، وإذا لم يكن المرء أحد إخوتها، فكان يبدو لها ذلك تعاسة يذهب ضحيّتها كثير من الخلق، أو

كلهم في الواقع تقريباً، وأنا منهم، لأنني في النهاية، لست إلا ابن أحد إخوتها. أحياناً، كانت العمة ماتيلده تدعوني إلى حجرتها، فتلتفت إليّ وهي تخيط قرب النافذة دون أن تسألني شيئاً، فهي تعدّ أمراً مسلّماً به أنّ مشاعري وذوقي وأفكاري جميعاً، كانت ثمرة أقوالها، واثقة بأن لاشيء يمكن أن يحول بيني وبين تلقّي كلماتها تامّة. كنت أصغي إليها بانتباه. وكانت ترى لي امتيازاً بأنني ولدت لأحد إخوتها، وأني أستطيع بذلك، أن أكون على صلة بهم جميعاً.

كانت تحدّثني عن النظافة التامّة في اجراءاتهم القضائية الحاذقة، نظراً لأنهم يترافعون في أعقد الدعاوى البحرية، ناقلة إليّ حماسها برفاهيّتهم وتميّزهم اللذين سأسير على نهجهم بهما، دون شك. كانت تشرح لي الحجز الذي ألقي على حمولة من البرونز، أو عطل سفينة نتيجة صدامها بقاطر تافه، أو النتائج الكارثيّة الناجمة عن حمول زائدة لقارب يرفع راية مجهولة. ذلك، في نظرها الحياة. هو ومشاكل البيت. لكنها حين كانت تحدثني عن السفن، لم تكن كلماتها تبيّن لي سحر الصافرات المبحرة المبحوحة التي كنت اعتدت سماعها من بعيد، في ليالي الصيف حين أصعد إلى المستودع مُسهّداً بسبب الحر، فأطلّ من طاقة هناك، وأتأمل الأضواء البعيدة الطافية، وهذه الكتل من ضباب المدينة الراقدة على ما يخلو من الجدّة، لأن حياتي كانت وستظل دائماً، منظمة تمام التنظيم. عمتي ماتيلده ما كانت توحي إليّ بهذا السحر لأنها كانت تجهله؛ فلم يكن له مجال في حياتها. ولايمكن أن يكون له مجال في حياة ناس مقدرٍ لهم أن يموتوا بكرامة، ليستقرّوا فيما بعد، براحة تامّة في السماء، سماء مماثلة لبيتنا. كنت أستمع إليها ساكناً، ونظري مشغول بالخيط والإبرة اللامعة الملقاة فوق (بلوزتها) السوداء، فكان يبدو أنها تلتقط ضوء النافذة كلّه. كان يتملكني إحساس كئيب بالعجز إزاء هذه الصافرات المبحرة في الليل، إزاء ظلمة هذه المدينة المرصّعة بالنجوم والشبيهة جداً بالسماء التي لاتفصح عن سرٍّ من أسرارها. لكنني كنت أملأ غبطة إزاء عالم من الأمن تخطّه كلماتها لي، إزاء هذا الطريق الرائع المستقيم الذي ينتهي بموت لا تخشى عواقبه، مثله مثل حياتنا، ليس فيه مصادفة ولا مفاجآت. لأن الموت ليس رهيباً. فهو الحدّ الأخير

والواضح والنهائي، ولا شيء غير ذلك. الجحيم موجود، بالطبع؛ لكنه ليس معداً لنا، وإنما لسكان آخرين في المدينة؛ أو لأولئك البحارة المجهولين الذين يسبّبون أعطال السفن ويملؤون صناديق العائلة حين تُحسم الدعاوى.

كل فكرة تحمل تهديداً بالمفاجآت، أو تثير الخوف كانت غريبة جداً عن عمتي. ذلك أني أعتقد أن الحبّ والخوف يسيران جد متّحدين مع بعضهما. لكن، ربما كنت مخطئاً. فمن الممكن أن يربطها بإخوتها شكل من الحب على طريقتها في العزلة والتصلّب.

كان الإخوة يجتمعون ليلاً بعد العشاء في قاعة البيلياردو، ويتناولون القهوة ثمّ يلعبون بعض الأشواط. كنت أرافقهم في هذه السهرات. إزاء هذه الحلقة من الحب المسورّ بالتخوم والذي يقصيني عن مجاله، كنت أتألم وأنا ألمح أن عواطفهم ما كانت تحاول أن ترتبط ببعضها. ومن الطريف أن مُخيّلتي لاتتيح لي حين أتذكر ذلك البيت، غير صور الألوان الرمادية والظلال. لكنني حين أثير صورة تلك الساعة حول الطاولة ذات اللون الأخضر الصارخ، والكرات البيض والحمر، وحفرة الشبكة الزرقاء، تلتهب ذاكرتي من جديد، يضيئها مصباح منخفضٌ، ظلّته كانت تنبش كل ما بقي من الغرفة وتخرجه من الظل. كانت العمة ماتيلده ترقّق صوتها متّبعة شكلاً من طقوس العائلة، منادية من الظلمة بإخوتها كلٌّ بدوره ليقوم بألعابه:

- «الآن، دورك ياغوستافو».

حين كان عمي غوستافو ينحني فوق (الطاولة) الخضراء والعصا بيده، كان يُضاء وجهه الهشّ كورقة، وجه يشوّه نبله بشكل غريب عينان خزراوان بإفراط. وبعد أن يفرغ من اللعب، كان يعدو إلى الظلّ ويدخّن سيجار (هابانا) الذي ينتشر دخانه الضعيف حتى ينحل في ظلمة السقف. أخته كانت تنادي حينئذ:

- «حسن! الآن، دورك يا آرماندو».

كان وجه عمي آرماندو الصبياني الخجول، ذو العينين السماويتين المحتجبتين وراء نظّارة سميكة ذات إطار ذهبي، ينزل إلى الضوء. مباراته بصورة عامة كانت سيّئة، لأنه كان «الصغير»، كما كانت تدعوه العمة ماتيلده أحياناً، وبعد التعليقات التي كان يثيرها لعبه، كان يختبئ خلف صحيفته اليومية. ثم تقول، عمتي.

- «بدرو، دورك...».

كنت أحبس نفسي حين أراه منحنياً ليلعب. كنت أحبسه، وأنا أراه يتهاوى أمام سلطة أخته. ومن صميم قلبي الذي صار كالعقدة، كنت أرجو أن يتمرّد على الأوامر المقرّرة سلفاً. طبعاً، ما كنت أستطيع أن أستوعب أن هذا النظام القاسي كان في ذاته، شكلاً من التمرّد اخترعوه لمواجهة الفوضى، كيلا تمسَّهم اليد الرهيبة لذاك الذي لايمكن شرحُهُ ولا حلّه. كان أبي ينحني حينئذ فوق الجوخ الأخضر، ويقيس بنظرته الحلوة المسافات ومواضع الكرات، ثم يشرع في اللعب، وبعد أن ينتهي، كان ينفخ، فيضطرب شارباه ولحيته حول الفم الفاغر قليلاً. ثم كان يسلّمني العصا لأضعها في حفرة الشبكة الزرقاء؛ بهذا الدور البسيط الذي كان يَسنده إليّ، كان يجعلني ألمس، على الأقل، محيط الدائرة التي كانت تربطه بإخوته دون أن أشارك إلا بالتماسّ فقط.

ثم كانت عمتي ماتيلده تلعب لعبتها. كانت تتفوق عليهم جميعاً. وحين كنت أرى وجهها المتجهّم، المتشكّل تقريباً من عيوب وجوه إخوتها، يهبط من الظل، كنت أعلم أنها ستفوز، وكان لابدّ من أن تفوز؛ ومع ذلك، ألم أرَ شرارةً من الفرح في عينيها الصغيرتين، وسط وجه متنافر الملامح كأنه قبضة يد مضغوطة بشدّة، حين يتمكّن بالمصادفة، أن يهزمها أحدّ إخوتها؟ كانت هذه قطرة فرح، لأنها ما كانت تسمح لأحد منهم أن يكسب، وإن كانت ترغب في ذلك. سيكون معناه إدخال عنصر الحبّ الغامض في لعبة لاينبغي أن يدخل فيها، لأن العطف يجب أن يظلّ حيث هو دون أن ينتقض ليشوّه الواقع الصحيح للعبة.

- ٣ -

لم أعجب بالكلاب أبداً. لعل أحدها أخافني وأنا طفل صغير جداً. لا أتذكّر شيئاً من ذلك؛ لكنها كانت تثير نفوري دائماً. على كل حال، نفوري آنذاك، من هذه الحيوانات كان دون معنى، لأن البيت كان خالياً منها. وقلما كنت أخرج حتى تعرض لي حالات نادرة بأن تزعجني. في نظر عمتي وأبي، لم يكن للكلاب وجود، شأنها شأن كل ماينتمي إلى المملكة الحيوانية. بالطبع، كانت الأبقار تزوّدنا بالقشدة التي تُغني حلويات يوم الأحد المقدّمة في صوان من الفضة. أما العصافير المزقزقة عند الغسق بين غصون الدردار، فكانت القاطن الوحيد الذي يشغل الحديقة الصغيرة التي يُدير لها البيت ظهره. لكن المملكة الحيوانية كانت موجودةً بالمعيار الذي تساهم فيه برفاهية أشخاصهم. ولو قلنا حينئذ، إن الكلاب شاردة، كما هو حال كلاب المدن، لما احتكّت في خيالهم بإمكانيّة للوجود.

حقاً، كنا نلتقي أحياناً بأحد الكلاب، ونحن عائدون من قدّاس يوم الأحد. لكن، كان من السهل بألا نعزوَ له وجوداً، عمتي ماتيلده التي كانت تسير معي في المقدمة دائماً، كانت، ببساطة، تختار ألا تراه. أما عمّاي وأبي الذين يسيرون وراءنا بخطوات، فكانوا مشغولين بقضايا هامّة للغاية فلا يثير انتباههم شيءٌ تافه ككلب ضالّ، مثلاً.

أحياناً، كنا نذهب، أنا وعمتي ماتيلده إلى القدّاس باكراً لتناول القربان. نادراً ما كنت أستطيع التركيز حين تناول القربان؛ لأن الفكرة العامة بأنها تراقبني دون أن تنظر إليّ، كانت تحتلّ الطابق الأول من وعيي. لئن كانت تصوّب عينيها

نحو المذبح، وتطأطئ جبهتها أمام ذي الجلال، فإن أية حركة مني، كانت تلفت انتباهها. إذ كانت تقول لي بعد خروجنا من الكنيسة بعتاب مبطّن، إنها لا تشكّ في وجود برغوث على المقعد منعني من أن أركّز تفكيري في أن الموت هو النهاية المرتقبة الطيّبة؛ وكل رجائنا ألا يكون مؤلماً. ومن أجل ذلك، من أجل ذلك، تقام الصلوات والقداديس والمناولة.

وذات صباح من تلك الأصباح..

كان الرذاذ الناعم يهدّد بأن يتحوّل إلى مطر غزير. وكان بلاط الكبراش يمدّ مراوحه النظيفة اللمّاعة من رصيف إلى رصيف يقطعها خطا حديد الترام. كان الطقس بارداً، وكنت أرغب في العودة إلى البيت سريعاً؛ فغذذت الخطا تحت فطْر المظلّة الأسود الذي كانت تمسك به عمتي ماتيلده؛ كان عدد السابلة قليلاً، لأنّ الوقت باكر. حيّانا سيّد غامق البشرة جداً، دون أن يرفع قبّعته بسبب المطر. ولفتت عمتي انتباهي حينئذ. فقد راحت تردد عليّ احتقارها للناس الملوّنين. لكن (تراماً) لم أسمعه وهو يجري، فرمّلَ فجأة فرملة عنيفة، على مقربة منا، فقطع عليها مونولوجها. أطلّ السائق من النافذة الصغيرة وصاح:

- أيها الكلب الغبي!

وتوقفنا لننظر.

كانت كلبة صغيرة بيضاء أفلتت بصعوبة من بين عجلات الترام. وسارت مترنّحةً واضعة ذيلها بين رجليها والتجأت إلى عتبة أحد الأبواب. واستأنف الترام سيره.

واحتجّت عمتي ماتيلده:

- مصيبة أن تترك هذه الكلاب هكذا!

تابعنا سيرنا، ومررنا قرب الكلبة المتكوّمة في زاوية العتبة. كانت كلبة صغيرة بيضاء، أرجلُها قصيرة جداً تكاد لا تقوى على حملها؛ ولها خطم قبيح مدبّب يشي

بأنها منحدرة من سلالة كلاب ضالّة رديئة. كانت خلاصة عروق متنافرة جابت شوارع المدينة على مدى أجيال باحثةً عن طعامها بين أكوام القمامة ونفايات المرفأ. كانت مبلّلة ضعيفة ترتعد من البرد والحمّى. لما مررنا أمامها لمحتُ شيئاً عجيباً: نظرت عمتي إلى الكلبة، ونظرت الكلبة إليها؛ وتقاطعت نظراتهما. لم أرَ التعبير الذي تجلّى في عيني عمتي؛ وإنما رأيت الكلبة وهي تنظر إليها جاعلةً من نظرة عمتي أياً كان محتواها، دعوةً لها لمجرّد أنها أمعنت النظر فيها.

تابعنا سيرنا باتجاه البيت، وبعد خطوات من ذلك، كنت على وشك أن أنسى الكلبة، فإذا بعمتي تستدير بعنف وتصرخ:

- بسّتْ! ارجعي!

استدارت وهي على ثقة تامّة بأنها ستجدها تتبعنا.

ورجّني سؤال أخرس نبع من المفاجأة: «كيف عرفت ذلك؟» لايمكنها أن تكون سمعت خطوها، لأنها كانت تتبعنا من مسافة هامة. لكنها لم تكن تشك في ذلك. أتكون تلك النظرات التي تبادلتاها، وكنت الشاهد الوحيد عليها كيف حدثت، (رفعت الكلبة رأسها باتجاه عمتي، وطأطأت هذه رأسها قليلاً باتجاه الكلبة) أتكون قد احتوت على اتفاق سرّي، على وعد بالإخلاص لم أدركه؟ لست أدري. على كل حال، استدارت عمتي لتطرد الكلبة. كانت لفظة «بَسّتْ» القصيرة الحاسمة صوتَ شيء يشبه رغبةً عاجزة عن إبعاد مصير كان مفروضاً عليها أن تقبله. من الممكن أني أقول ذلك على ضوء الأحداث اللاحقة؛ وأن خيالي يزيّن لي مغزى ما كان في الحقيقة أمراً عارضاً. ومع ذلك، أستطيع التأكيد أنني أحسست حينئذٍ بالغرابة والخوف تقريباً من فقدان عمتي كرامتها فجأة، لما تنازلت فالتفتت موليةً أهمية لكلبة مريضة وسخة، كانت تتبعنا لأسباب لايمكن أن تكون ذات بال.

وصلنا البيت وصعدنا الدرج. ظلّ الحيوان في الخارج ينظر إلينا واقفاً تحت المطر الذي أخذ ينهمر مدراراً، ودخلنا. لذّة الإفطار، غبّ تناول القربان استطاعت أن تمحو من ذهني الكلبة البيضاء. لم أشعر بالحماية التي يوفّرها البيت أبداً كما

شعرت بها ذلك الصباح. لكن، كلا! لم تكن فرحتي على هذا القدر من الكبر لاطمئناني إلى أنّ هذه الجدرانَ العنيفة لا تزال تحدّ عالمي.

ماذا فعلت بقيّة الصباح؟ لا أتذكّر. لكنني أفترض أنني عملت ما كنت أعمله دائماً: قراءة الصحف، القيام ببعض المهام، اللعب على السلم، النزول إلى المطبخ لأسأل ماذا يوجد لغداء يوم الأحد.

خلال تسكّعي في هذه الحجرات الفارغة -(عماي كانا ينهضان من الفراش متأخرين أيام الآحاد الماطرة معتذرين عن الذهاب إلى الكنيسة)- رفعت ستارة نافذة لأرى إن كان المطر سيهدأ. كان لايزال يهطل بغزارة. مرّة أخرى، رأيت الكلبة واقفة على الدرج. كانت لاتزال ترتعد وهي تمعن في النظر الى البيت. أسدلت الستارة كيلا أراها مبلّلة وكأنها أسيرة فتنة ما. وفجأة انبثق خلفي من جوّ ظلام القاعة، صوت عمتي ماتيلده الرزين، وهي تنحني لترمي عود الثقاب فوق الحطب المعدّ في المدفأة، وسألتني:

- «ألا تزال هنا؟».

- «مَنْ؟»

وكنت أعرف من.

- «الكلبة البيضاء».

وأجبت إنها لاتزال هناك. لكنّ صوتي تهدّج حين شكّلت المقاطع، وكأن سؤال عمتي هدم بطريقة من الطرق الجدران التي تحمينا متيحةً للمطر والريح القاسية أن يستقرّا داخل بيتنا.

- ٤ -

لاريب في أنها كانت آخر عاصفة مطريّة ذاك الشتاء؛ لأنني أتذكّر بوضوح أن الأيام التالية كانت صافية، والليالي أخذ يدبّ فيها الدفء.

ظلّت الكلبة البيضاء تلطي وراء بابنا، خائفة دائماً؛ وتدقّق النظر في النوافذ كأنها تبحث عن شيء. كنت أحاول وقت انطلاقي إلى المدرسة صباحاً، أن أخيفها لكي تهرب. لكنني ما أكاد أصعد الحافلة حتى أراها تظهر على ناصية الشارع بحياء، أو من وراء عمود مصباح. حاولت الخادمات أيضاً أن يُبعدْنها. لكنّ محاولاتهن كانت دون جدوى مثل كل محاولاتي. لأن الكلبة كانت تعود دائماً وكأنّ البقاء قرب بيتنا كان إغراءً يجب الخضوع له وإن حمل في طيّاته الخطر.

ذات ليلة، كنا نقف جميعاً عند مطلع الدرج نودع بعضنا قبل التوجّه للنوم. عمي غوستافو كان مكلّفاً بإطفاء الأنوار. وقد أطفأها ما عدا مصباح السلم جاعلاً فضاء الدهليز مسكوناً بظلال الأثاث. عمتي ماتيلده التي كانت توصي عمي آرماندو بأن يفتح نافذة غرفته ليدخلها قليل من الهواء، انعقد لسانَها فجأة، ونطقت بكلمات الوداع مفككة. وتوقّفنا جميعاً عن الحركة، وقد كنا بدأنا نصعد السلم.

- «ماذا جرى؟» سأل أبي وهو ينزل إحدى الدرجات.

- «اصعدوا!» -غمغمت عمتي ماتيلده، وقد استدارت دورة لتنظر في عتمة المدخل.

غير أننا لم نصعد.

صمتُ القاعة -الواسعة جداً بعامة- مليء بالصوت السرّيّ لكل غرض. (حبة تراب تنزلق بين ورق الجدران العتيق والحائط؛ أخشاب تصرّ؛ كأس غير ثابتة تهتز.) وغمرت الأصداء هذي الثواني القليلة. كان أحد غيرنا موجوداً حيث كنا؛ إنه شكل أبيض صغير قهر العتمة قرب باب الخدم؛ إنها الكلبة التي اجتازت الدهليز مترنّحة ببطء باتجاه عمتي وارتمت على قدميها دون أن تنظر إليها.

وكأن همود نشاط الكلبة، جعل حركتنا - نحن الذين كنا نتأمّل المشهد -ممكنةً: فنزل والدي درجتين؛ وأشعل عمي غوستافو الضوء، وصعد عمي آرماندو بتثاقل واحتبس في مخدعه.

- «ماهذا؟» سأل أبي.

ظلّت عمتي ماتيلده ساكنة.

- «كيف استطاعت الدخول؟» -سألت نفسها فجأة.

كانت كلماتها تبدو أنها تقدّر المهارة التي تطلّبها منها القفز فوق السياج وهي في حالة يُرثى لها؛ أو دخولها من القبو من خلال زجاج مكسور؛ أو مغافلتها يقظة الخادمات لتنزلق من باب مفتوح بالمصادفة.

- «ادعي إحدى الخادمات، يا ماتيلده كي تأخذها». -قال أبي ثم صعد الدرج يتبعه عمي غوستافو.

مكثنا -أنا وهي- ننظر إلى الكلبة، ثم قالت بصوت خفيض:

- «إنها وسخة ومحمومة.. انظر، هي أيضاً جريحة».

نادت إحدى الخادمات لكي تأخذها، آمرةً أن يقدّم لها الطعام، ويُستدعى الطبيب البيطري في اليوم التالي، وسألت:

- «أو ستظلّ في البيت؟»

- «كيف ستسير وهي في هذه الحالة في الشارع؟» تمتمت عمتي ماتيلده.
-«يجب أن تشفى قبل أن نطردها. ويجب أن تشفى سريعاً لأنني لاأحِبّ أن يكون لدينا حيوانات في البيت».

ثم أردفت:

- «أصعد لتنام!»

ولحقت هي بالخادمة التي أخذت الكلبة.

وعرفتُ حينئذ هذا الإصرار القديم عند عمتي، كيما يكون كل شيء حولها على مايرام، عرفت هذه العزيمة والدقّة اللتين تجعلانها ملكة لاتُناقش في الأمور الطارئة واجدةً نفسها جدّ واثقة داخل حدودها، لأن الشيء الضروري الوحيد عندها، كان حلّ النواقص، والأخطاء الطارئة غير المقصودة أو المتعمّدة. لذلك كانت الكلبة البيضاء ستشفى؛ وهي بنفسها ستتكفّل بذلك. لأن الحيوان دخل في نطاق سلطتها، فالطبيب البيطري سيعصب رجلها المجروحة تحت إشرافها المباشر. وستحمي هي يديها بقفّازين من المطاط والقماش. وستتولّى بنفسها غسل بثورها بمطهّر سيجعل الكلبة تئنّ، لكن العمة ماتيلده ستُصمّ أذنيها عن أنّاتها، واثقة بشكل رهيب أنها بذلك تصنع خيراً لها.

وهكذا كان.

وظلّت الكلبة في البيت، ذلك لايعني أني كنت أراها، لكنني كنت أعرف التوازن بين الكائنات التي تقطنه؛ لأن وجود كائن غريب، وإن كان يقف على حدود المستودع، يمكنه أن يخلّ بالتوازن المألوف. شيء، شيء ما كان ينبهني لوجودها معي تحت سقف واحد. لعل ذلك الشيء لم يكن ذا خطر كبير. أحياناً، كنت أرى عمتي ماتيلده لابسةً قفازين من المطاط، حاملة زجاجة مملوءة بسائل أحمر؛ أو أعثر على صحن فيه بقايا وبْر في أحد ممرّات القبو حيث كنت أذهب

لأتأمل الدرّاجة التي أهديت لي حديثاً. وأحياناً أخرى، كانت تصل إلى سمعي شبهة نباح ضعيف أخمدته الطوابق والجدران.

ذات مساء نزلت الى المطبخ. ودخلت الكلبة البيضاء ملطّخةً كالمهرج بالمطهّر الأحمر. طردتها الخادمة دون مراعاة لكنني لاحظت أنها أصبحت لا تترنّح؛ وأن ذيلها المتهدّل من قبل، كان ينتصب كريشة كاشفاً عن مؤخّرتها دون حياء.

ذلك المساء، سألتُ عمتي ماتيلده:

- «متى سنطردها؟»

- «نطرد من؟» -أجابت

وكانت تعرف تمام المعرفة ما أعنيه.

- «الكلبة البيضاء».

- «لم تشفَ بعد». -أجابت.

فكرت، فيما بعد، أن ألحّ وأقول إن الكلبة، وإن لم تشفَ تماماً، فلن يضيرها أن تدسّ وجهها في أكوام القمامة باحثة عن الطعام؛ لم أفعل ذلك، لأنني أعتقد أن عمتي، بعد أن خسرت الشوط الأول في البليارد تلك الليلة، قالت إنها ليس لديها رغبة في لعب شوط آخر. تابع إخوتها لعبهم، وغاصت هي في مقعد ضخم من الجلد، مذكّرة كلاً منهم بدوره. وأخطأت فجأة في ترتيب الأسماء. ومرّت لحظة من الاضطراب؛ لكن خيط النظام وصله سريعاً هؤلاء الرجال الذين يرفضون المصادفة إن لم تكن مواتية لهم. لكنني كنت قد رأيت.

كانت عمتي تبدو أنها غير حاضرة بيننا. كانت تتنفّس قربي كالعادة. وكانت السجّادة السميكة التي تمتصّ الأصوات، تستسلم كالعادة عند قدميها. وكانت يداها المعقودتان بلطف، (ربما بلطف أكبر مما هو عليه في ليال أُخَر) تسترخيان على تنّورتها. كيف يمكن أن يُحس، بثقة كبير، بغياب كائن حين يكون لُبّه في جهة أخرى؟

لبُّها وحده كان غائباً؛ لكنّ صوتها كان ينادي إخوتها جاراً معاني مستهلكة، لأنه كان يصدر من مكان آخر.

كانت الليالي التالية متشابهة، تعكّرها هذه البقعة اللامنظورة تقريباً لغيابها. تخلّت تماماً عن المشاركة في اللعب والمناداة بإخوتها. لعل هؤلاء لم يلحظوا ذلك. أو لعلهم لحظوه، لأن اللعب صار أقصر. ولحظت أن اهتمامهم بها زاد بشكل هائل.

ذات ليلة، كنّا خارجين من غرفة الطعام، فإذا بالكلبة تظهر في المدخل وانضمّت إلى الفريق العائلي. هم كانوا ينتظرون كالعادة، عند باب المكتبة لتتقدّمهم أختهم حتى قاعة البليارد، ترافقها هذه المرة كلبة بيضاء مرحة. لم يُبدوا أي تعليق، وكأنهم لم يروها ثم باشروا لعبهم مثلما يفعلون كل ليلة.

جلست الكلبة عند قدمي العمّة ماتيلده بهدوء شديد. كانت عيناها المشعّتان تجوبان القاعة، وتتابعان مناورات اللاعبين، وكأنها تشعر بمتعة فائقة بذلك. صارت الآن سمينة ووبرها لماعاً؛ وجسمها كله، بدءاً من خطمها المرتجف حتى ذيلها المتأهّب للاهتزاز، صار مملوءاً بطاقة حية للهو والتسلية. كم مضى عليها في بيتنا؟ شهر؟ ربما أكثر. لكن عمتي أرغمتها خلال هذا الشهر على أن تشفى باذلة عنايتها دون إبداء شفقة؛ وإنما كانت، بمهارة يديها المعروقتين، تنهمك في تركيب ما هو مفككّ. عالجت جراحها دون أن تنثني أمام آلامها وأنينها. لقد شفيت رجلها. قد كانت طهّرتها وغذتها وغسلتها، وصارت الكلبة البيضاء الآن كائناً تاماً. كل هذا، مع ذلك، ما كان يبدو أنه يشدّها الى الكلبة. لعلّها قبلت به، كما قبل حضورها هذه الليلة عماي. لأن طردها معناه إيلاء أهمية لشيء لايمكن أن يحظى بها. كنت أرى عمتي هادئة منطوية، مشحونة بعنصر جديد لم يصل بعد ليفيض فيصيب هدفه. والآن صرنا ستة عناصر يفصلها عن بعضها شيء أوسع من البُسط وفضاء الهواء.

عمي أرماندو، وكان لاعباً متعثّراً، أسقط في أحد ألعابه حفرة الشبكة الزرقاء، فهُرعت الكلبة مدفوعةً بدافع يشدّها إلى ماضي صعلكتها نحو الشبكة وانتزعتها منه.

وانثنى ليلتقطها، فأمسك بالكلبة من خطمها. حينئذ، حدث شيء مفاجئ. تحلّلت عمتي ماتيلده بغتة من وقارها وانفجرت بقهقهة لا ضابط لها، رجّت كيانها كله لمدة ثوان. وقفنا جامدين. تركت الكلبة الشبكة لما سمعت الضحك، وهرعت نحوها وهي تحرك ذيلها إلى الأعلى، وقفزت الى حضنها. هدأت ضحكة عمتي. لكن عمي آرماندو المغاظ غادر القاعة كيلا يشهد هذا التحلّل من النظام بسبب اندساس اللامعقول. تابع أبي وعمي غوستافو لعبهما. صاروا الآن أكثر حرصاً بألا يروا شيئاً، ولا يعلّقوا على شيء، ولايشيروا إلى الأحداث، آملين بذلك أن يوقفوا شيئاً كان يتقدّم.

أنا لم أجد قهقهة عمتي مسلّية. كان الأمر واضحاً جداً بأن شيئاً غامضاً أثارها. استقرّت الكلبة في حضنها؛ وبدا أنّ اصطكاك الكرات ببعضها بشكل دقيق ومتباعد، يقود يد عمتي من موضعها على (الصوفا) الى حضنها؛ ومن حضنها إلى متن الكلبة المغفية. لما رأيت يد عمتي الخالية من التعبير تستقرّ هناك، لحظت أيضاً أن التوترّ الذي لم ألمحه من قبل على قسماتها بهذه الحدّة كما رأيته اليوم، (لأنني لم أشك أبداً في أنه تعبير عن الكبرياء) ما لبث أن ذاب وحلّت محلّه سكينة كبرى لطّفت من جهامة وجهها.

دنوت منها يدفعني شيءأقوى من إرادتي لم أستطع مقاومته. أملت أن تدعوني وتضمّني إليها من خلال بسمة. لكنها لم تفعل، لأن الرابطة الجديدة كانت تقف حائلاً كبيراً بيننا، وفيها لا يوجد مكان لي. كائنان فقط اتّحدا مع بعضهما دون سائر الكائنات الأخرى في البيت. وظللت خارج هذا الاتحاد، وإن كنت راغباً فيه. أما الآخرون، أما الإخوة فظلّوا معزولين لأنهم أصمّوا السمع عن النداء الخطر الذي تجاسرت عمتي ماتيلده على سماعه.

- ٥ -

حين كنت أعود من المدرسة مساء، كنت أتّجه مباشرة الى الطابق الأرضي، وأركب درّاجتي الجديدة، وأدور بها دورة بعد دورة خلال حديقة البيت الخلفية الضيّقة. أو بالأحرى، حول الدردارة، وزوجين من المقاعد الحديدية. خلف السور، كانت أشجار الجوز في الحديقة المجاورة، قد بدأت تعلن عن أولى تباشير الربيع.

لكنني ما كنت أهتمّ بالفصول، ولا مباهجها لأنني كنت أعاني أشياء خطيرة للغاية، يتعيّن عليّ التفكير فيها. وإذ كنت أعلم أن أحداً لاينزل إلى الحديقة حتى يجعل حرّ الصيف الخانق من الجلوس فيها أمراً مُلزِماً، فكنت أجدها حينئذ، خيرَ مكان لأتأمّل ما يجري في بيتنا.

سطحياً، قد يُخيّل إلى المرء أن لا شيء يحدث فيه. لكن، كيف لي البقاء هادئاً إزاء العلاقة الطريفة المعقودة بين عمتي ماتيلده والكلبة البيضاء؟ وكأني بعمتي، بعد أن خدمت بإخلاص وبانسجام مع حياتها الفريدة، قد عثرت على نظيرها، على أحد يتكلّم لغتها الباطنة؛ وأمست حياتهما ترتبط بعلاقة حميمة ملأى باللطائف والمحاسن المرهفة. كانتا تأكلان سكاكر موضوعة في علب مربوطة بشرائط رخيصة. وكانت الكلبة البيضاء ترقب عمتي حين ترتّب برتقالاً، وأناناس، وعنباً في أواني الفاكهة البلورية، وكأنها تدقّق في حسن ذوقها أو لتبدي لها رأيها. كانت عمتي تبدو كمن اكتشف جانباً أهنأ من الحياة بمقاسمة الكلبة هذه النعم حتى فقد الآن كل شيء أهميته في نظرها إزاء هذا العالم العاطفي الجديد.

كان مألوفاً أن أسمع وأنا أمرّ أمام بابها، قهقهةً شبيهة بتلك القهقهة التي زعزعت نظام حياتها تلك الليلة؛ أو أسمع حواراً (وليس مونولوجاً كما كان الحال معي) بينها وبين صوت ما كان يُسمع. تلك كانت الحياة الجديدة.

كانت الكلبة المذنبة تنام في سلّة في غرفتها؛ سلة لطيفة رقيقة مستحيلة في نظري. وكانت تتبعها في كل الأرجاء ما عدا غرفة الطعام. فقد كان دخول ذلك المكان محظوراً عليها. لكنها كانت تنتظر سيدتها حتى تخرج، وتتبعها إلى المكتبة أو البيلياردو، أو حيثما كنا نستقر، فتجلس إلى جانبها أو على حضنها متبادلة معها من حين لآخر، نظرات تفاهم مريبة. كنت أحس أن الكلبة أقوى الاثنتين؛ إذ كانت تكشف لعمتي أشياء مجهولة، وتدلّها عليها. وقد استسلمت هذه الأخيرة استسلاماً كاملاً لخبراتها. كيف صار ذلك ممكناً؟ كنت أسأل نفسي. لماذا تعيّن عليها أن تنتظر حتى الآن، لتنقلب أخيراً وتقيم حواراً لأول مرة في حياتها؟ أحياناً، كنت أراها غير مطمئنة إلى الكلبة؛ وكأنها تخشى أن يأتي يوم فتغادر البيت، وتخلّفها وحيدة مع كل هذه الأشياء الجديدة التي تطفح بها يداها. أم أنها لاتزال تخشى على صحتّها؟ كان الأمر في منتهى الغرابة.

كانت هذه الأفكار تطفو كبقع في مُخيّلتي وأنا أسمع صرير الرمل وحصى الدرب تحت عجلتي دراجتي. أما ما كان واضحاً، فهو رغبتي الحادّة في أن أُصاب بمرض خطير، لأرى إن كنت أستطيع الحصول أيضاً على ارتباط يشبه ذلك الارتباط. لأن مرض الكلبة كان السبب في كل ما جرى. ومن دون هذا المرض ما كانت عمتي ارتبطت بها أبداً. لكن صحتي كانت من حديد. زد على ذلك، أن قلب عمتي ما كان يتّسع في آن واحد إلا لحب واحد، خاصة إذا كان بهذا الحجم الضخم.

ما كان يبدو على أبي وعمّي أنهم لاحظوا أيّ تبدّل في سلوكها. كانت الكلبة هادئة. وبتخلّيها عن حالات التشرّد، يبدو أنها اكتسبت عادات جديدةً تروق لعمتي ماتيلده، محتفظة، مع ذلك، بكل إشراقة الأنثى التي لم تستطعْ قسوة الحياة أن تحجبها، لا، ولا مزاجُها الرائق، ولا ميلها للمغامرة. وبدا للأخوة أن قبولها

أسهل لهم من طردها. لأن هذا الحل الأخير كان يورّطهم، على الأقل، في جدال ربما أدّى إلى مراجعة غير مريحة لقوانين سلامتهم.

ذات ليلة، ظهر إبريق الليمونادا على مزينة في المكتبة، مرطّباً ذلك الركن من الظل، وشُرّعت النوافذ للريح. لكن أبي وقف فجأة لما دخل قاعة البيليياردو:

- «ماهذا؟» -صاح وهو ينظر إلى الأرض.

توقّف الرجال الثلاثة ينظرون بغيظ إلى بقعة صغيرة مدوّرة على الأرض اللامعة.

- «ماتيلده!» -صاح عمي غوستافو.

واقتربت هذه ونظرت؛ واحمرّ وجهها من الخجل؛ كانت الكلبة اختبأت تحت طاولة البيليياردو في الغرفة المجاورة. لمّا اتجه أبي صوب الطاولة، لمحها هناك، فقفل راجعاً من فوره، وخرج من القاعة يتبعه أخواه صاعدين إلى مخادعهم حيث احتبس كل منهم صامتاً وحيداً.

لم تقل العمة ماتيلده شيئاً. لكنها صعدت إلى حجرتها تتبعها الكلبة. ومكثتُ في المكتبة حاملاً كأس الليمونادا، ناظراً إلى سماء الصيف، مستمتعاً، متنصّتاً بقلق إلى صافرة قارب بعيد، وإلى ضوضاء المدينة المجهولة المخيفة والمرغوبة أيضاً والمنبسطة تحت النجوم.

سمعت فجأة عمتي وهي تنزل واضعة قبّعةً على رأسها، وحاملة المفاتيح التي كانت تخشخش في يدها. وقالت:

- اذهب أنت، واستلقَ. أنا سأرافقها في نزهة في الشارع كي تقضي حاجاتها».

ثم أضافت شيئاً جعلني أرتعد.

- «ما أجمل الليل!»...

وخرجت.

بدءاً من هذه الليلة، كانت تقصد حجرتها بعد العشاء، بدلاً من أن تصعد لتهيء أسرّة إخوتها. ثم تلبس قبعتها، وتخشخش بمفاتيحها وتخرج مع الكلبة دون أن تقول شيئاً لأحد. وكنا نظل جميعاً: عمّاي وأبي وأنا، في قاعة البيلياردو، أو نجلس كلما تقدّم الصيف على المقعدين في الحديقة قرب الدردارة تحت قبّة السماء التي تخيّم فوقنا. لم يتحدّث أي من الإخوة عن نزهات عمتي ماتيلده الليلية. ولم يبدُ عليهم أنهم يدركون أنّ شيئاً ما قد تغيّر في البيت عند دخول عنصر يناقض كل نظام.

في البدء، كانت عمتي تظل خارج البيت عشرين دقيقة أو نصف ساعة على أقصى حد؛ ثم تعود سريعاً لتتناول أيّ شيء معنا، أو لتبدي بعض التعليقات البسيطة. بعد ذلك، أمست مدد بقائها في الخارج طويلة بشكل غير مفهوم. فهي لم تكن من تلك السيدات اللاتي يُخرجن كلابهن للنزهة لأسباب صحية. كان في الخارج، في الشوارع شيء قاهر يشدّها إليه. كان أبي ينتظرها وهو ينظر إلى ساعة جيبه خلسة، إذا كان تأخرها كبيراً جداً. وكان عمي غوستافو يصعد إلى (الصالون) في الطابق الثاني، كأنه نسي شيئاً ما هناك؛ كل ذلك، لكي ينظر من الشرفة. لكنهم كانوا يظلّون صامتين كأنهم خرس.

ذات مرة، طالت النزهة أكثر مما ينبغي، فراح أبي يجوب مرة تلو الأخرى، الدرب الذي يتلوّى بين أزهار (الأورطنسيا) المتفتحة كأنها عيون زرق ترقب الليل. تناول عمي غوستافو سيجار (هابانا) ولم يوفّق في إشعاله حسب رغبته؛ ثم تناول سيجاراً آخر وسحقه بعقب حذائه. ودلق عمي آرماندو فنجان القهوة. كنت أرقبهم منتظراً أن ينفجروا في النهاية ويقولوا شيئاً، ويملؤوا بقلق مُعلن هذه الدقائق التي كانت تطول وتطول دقيقة بعد أخرى دون وجود العمة ماتيلده.

وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف لما وصلت.

- «ولأي شيء تنتظرونني واقفين؟» -سألت وهي تبتسم.

كانت تحمل قبّعتها بيدها. وبدا شعرها منتفشاً على غير عادتها في العناية به. ولاحظت قطعة من الطين تلوّث حذاءها اللماع.

- «ماذا جرى لك؟» -سألها عمي آرماندو.

- «لاشيء».

كان جوابها. وبهذا الجواب أغلق الباب أمام كل حقّ ممكن لإخوتها في التدخّل في هذه الساعات المجهولة، سواء كانت مفرحة، أم مفجعة أم عابثة. ساعات صارت الآن حياتها.

أقول صارت حياتها لأنني لمحت خلال اللحظات التي كانت تقضيها معنا قبل أن تصعد إلى حجرتها مع الكلبة الملوّثة بالطين، بريقاً في عينيها، قلقاً مفرحاً شبيهاً بما نراه في عيون الحيوانات، وكأنهما استخمتّا في مشاهد لم ترها عين أخرى أبداً، مشاهد لانستطيع بلوغها. هي والكلبة صارتا رفيقتي درب واحدة، وكأن الليل يُظلّلهما بستره. صارتا تنتميان إلى عالم الضوضاء وصافرات المراكب التي كانت تصل أذني مجتازةً الأرصفة والشوارعَ المظلمة أو المضاءة، والبيوت والمصانع والحدائق.

نزهاتها مع الكلبة استمرت فترة معينة أخرى؛ وصرنا، الآن، نفترق بعد العشاء، ويصعد كل منا ليحتبس في حجرته. أبي وعماي غوستافو وآرماندو وأنا. لكن أياً منّا ما كان يغفو حتى يتأكّد من وصولها متأخرة، أحياناً متأخرة بشكل مخيف، أي حين يضيء ضوء الفجر شجرة الدردار. وبعد سماع طقّة قفل باب مخدعها فقط، كانت تتوقّف الخطا التي كان والدي يذرع بها غرفته؛ أو تغلق أخيراً، نافذة أحد إخوتها لتحصر هذه القطعة من الليل التي لم تعد تحمل الخطر.

ذات مرة، سمعتها تصعد متأخرة جداً. وإذ بدا لي أنها تدندن بلحن حلو، فائق العذوبة، شققت بابي وأطللتُ برأسي. ولما رأيتها تمرّ من أمام حجرتي وكلبتها

البيضاء بين ذراعيها، بدا لي وجهها شاباً وتاماً بشكل مدهش، وإن كان متّسخاً قليلاً. ورأيت شقاً في تنورتها. هذه المرأة كانت قادرة على فعل كل شيء. ولقد وضعت حياتها كلها أمامها.

واستلقيت ُخائفاً وأنا أفكر في أن النهاية اقتربت.

ولم أخطئ في ذلك؛ فبعد فترة بسيطة، خرجت عمتي ماتيلده للنزهة مع كلبتها بعد العشاء، ولم تعد أبداً.

قضينا الليل كله بانتظارها، كل منا في حجرته، لكنها لم تَعُدْ. في اليوم التالي، لم يقل أحد شيئاً. لكننا تابعنا انتظارنا الأبكم. وكنا جميعاً نطوف حول نوافذ البيت بصمت بانتظارها، دون أن يبدو علينا أننا نقوم بشيء. ومنذ اليوم الأول لغيابها قوّض الخوف الكبرياءَ المرتسمةَ على وجوه إخوتها الثلاث. ودبّ الهرم فيهم سريعاً.

- «عمتك سافرت» -أجابتني الطباخة لما تجرأت ُوسألتها عنها في نهاية الأمر. لكنني كنت أعلم أن ذلك غير صحيح.

استمرت الحياة في البيت، وكأن العمة ماتيلده ما تزال تقيم بيننا. حقاً، كان الإخوة يجتمعون كالعادة في المكتبة. ولعلهم باحتباسهم هناك يتكلمون، فيستطيعون تجاوز سور الخوف الذي يعزلهم، مطلقين العنان لإبداء مخاوفهم وشكوكهم. لكنني لست واثقاً جداً بذلك. جاءنا، مرات عدة، زائر ليس من عالمنا. وكان يحتبس معهم. ولا أظنه جلب لهم أخباراً عن التحرّيات التي قد يكون قام بها. لعله كان رئيس إحدى النقابات جاء للمطالبة بالتعويض عن حادث ما. كان باب المكتبة سميكاً وثقيلاً للغاية، فلم أعرف إن كانت عمتي ماتيلده التي جرفتها كلبة بيضاء، قد ضاعت في المدينة، أم ابتلعها الموت أو منطقة أخرى أشدّ غموضاً منهما كليهما.

أنا ماريا

«ماأغربَ أن تُترك بُنيةً صغيرة جداً، وحيدةً في حديقة كبيرة!» -فكّر العجوز وهو يمسح العرق عن وجهه بمنديل وضعه بعدئذ في جيب سترته المهترئة، الصغير.

الطفلة كانت في الواقع، صغيرة جداً. ربما بلغت العام الثالث أو تكاد. كانت تشبه جزيئاً يطفو تارة، ويختفي تارة أخرى، بين جذوع البلّوط والجوز على خلفيّة منظر أزرق، شكّلته أوراق الشجر. راحت عينا العجوز تبحثان عن البنية: كان يبدو أن الفوضى النباتية التهمتها؛ أو قل هذا الصمت المسكون بطنين الحشرات، وحدّ ساقية ضائعة بين جذور الأدغال والتوت البرّي. شعر الرجل بالقلق قليلاً حين لم يلمحها. ومع ذلك، سرعان ما وقعت عيناه على الجسم الصغير قابعاً في بركة من الزهور الصفر تحاكي قرص الشمس، وسط أنعم الظلال وأكثفها. حينئذٍ تنهد بارتياح مغمغماً:

- «يا للمسكينة الصغيرة!».

جلس تحت صفصافة كانت تظلّل الرصيف، مطلّةً عليه من إحدى زوايا الحديقة؛ ثم أوقد ناراً صغيرة بأغصان جافة، ووضع فوقها إبريقاً ليسخّن الشاي. تناول كسرة خبز وحبّة بندورة وبصلة، وشرع يأكل متفكّراً، متعجّباً كيف لم يرَ الطفلة الصغيرة من قبل. فقد كان يحسب دائماً أن هذا العقار المحاط بالأسلاك الشائكة مقفر، وإن خيِّل إليه أحياناً، أنه اكتشف بين أشجار الجانب الخلفيّ بيتاً صغيراً لا يتلاءم وضعه وهذا المكان. قد كان تفحّص الحديقة في أكثر من مناسبة مستغرباً بألا يرى فيها أحداً أبداً. لم كفّ بعد ذلك عن الاستغراب.

كل يوم، كان يهرع لتناول الغداء تحت الصفصافة، وليغفو قليلاً قرب هذه الجزيرة الخضراء، وهي المكان الأخضر الوحيد في الحيّ. في الساعة الثانية بعد الظهر، كان يعود إلى عمله في البناء الذي يقع على بعد مائتين وخمسين متراً عن الشارع الذي لاتزال كل الأمكنة فيه خالية دون بناء.

انبطح الرجل قرب الأسلاك الشائكة، محتمياً من قيظ الظهيرة اللاهب، متنصّتاً لخرير الساقية، متنبهاً لأدنى نأمة من أوراق الأشجار، راصداً الحديقة. لاحت له الطفلة من بعيد تطلع تلقائياً كأنها جزء من النبات. كانت تقف ضئيلة، شبه عارية قرب جذع ضخم تسلّقته شجيرات ورد حمر بخفّة حيوان. راح يراقبها برهة: رأى كيف تنزلق بألعابها وحركاتها بين الدغل؛ وكيف تنبثق فجأة؛ وكيف كان الجسم الصغير الأبيض يذوب كظل كثيف. بعد قليل نظّف إبريقه وعاد إلى عمله بعد أن أطفأ بقايا النار.

لما انتهى العمل اليومي، لم ينطلق العجوز مع مجموعة العمال الذي ساروا ضاحكين وهم يدوّرون صررهم المملوءة بالثياب في الهواء. لكنه تخلّف عنهم ليقف أمام الحديقة رغبة منه في أن يرى البنيّة. لكنه لم يرها.

عند حلول الليل، جلس يدخّن إلى جانب كوخه الواقع في الطرف الآخر من المدينة. امرأته كانت مقعية عند المدخل تنفخ في موقد ستضع فوقه قدْراً حين يحمرّ الجمر. كان العجوز في شكّ من أن يخبر زوجه بالأمر. فبعد ثلاثين عاماً ونيّف من الزواج، لم يصل إلى معرفة أيّ الأمور يمكن أن يقولها لها دون أن يغضبها. . . وإن كان في واقع الحال، صار منذ أمد طويل لا مبالياً إزاء سورات غضبها. لكنه ما لبث أن قال لها إنه رأى بنيّة صغيرة جداً وحيدة في حديقة كبيرة.

- «وحيدة؟». -ارتسمت على وجه المرأة خطوط خففّت من تجهّمه.

- «هي شقيراء. . . » -أضاف الرجل بصوت خفيض.

لما سمعت عبارة زوجها الأخيرة، تجهم وجهها مرة أخرى. ونفخت بقوّة في الموقد فانطلق ذيل من الشرر انفجر في الليل البئيس. ثم دخلت باحثة عن القدر، وهي متأكدة أكثر من أي وقت آخر، من ازدراء الرجل لها. فقد كانت ولاريب، الساعة المنتظرة التي ينبزها فيها بلقب «بغلة». كان يفعل ذلك كلما ضاق ذرعاً ببغضه الصامت لإخفاقها في مهمّتها الأنثوية. «البغلة!» هكذا كانت تدعوها نساء الحيّ المزهوّات الرازحات تحت وطأة الحاجة لإطعام أبنائهن الكثيرين، فكنّ يتحاشين كلّ صلة بها لشراستها وصمتها. وعلى مدى السنين، اختبأت هي في سحابة من سوء الطبع والحزن بانتظار اللحظة المناسبة لتنسحب مفسحة المكان لأنثى أخرى تكون أجدر منها به.

في البدء، كان الرجل يحسّ نحوها بشيء من الأسى. يومذاك كانت لاتزال تحتفظ بلمعة من شباب. لكن، صار من الصعب عليه جداً، بعدئذ أن ينفذ إليها. وتراكمت خلال الشيخوخة كل هذه الجفوة بينهما، مما جعل مرارةً شبه صامتة، الصلة الوحيدة الملموسة والايجابية قائمةً بينهما.

هذه الليلة، قدّمت المرأة لزوجها طبق حساء رديئاً. تناول الحساء دون أن يفكر هذه المرة في أنه ذات الحساء الذي يقدّم إليه دائماً، ولم يجد له خلال حياته الزوجية كلها مذاقاً طيّباً. ثم استلقيا. كان من عادة المرأة أن تتقلّب وتتكلم كثيراً قبل أن تنام، حتى كانت تجعل من العسير على العجوز أن يغفو؛ لكنّها كانت تتعنت أحياناً، فتظل مستيقظة ساعات طوالا. حينئذ ما كانت تتقلّب. ليلة أخبرها بأنه رأى بنيّة صغيرة في حديقة كبيرة جداً، لاذت بالصمت وظلت ساكنة، كأنها تترقّب شيئاً ما.

كل يوم، كان الرجل يسلتقي وقت الغداء على الرصيف الذي تظلّله الصفصافة قرب الأسلاك الشائكة وهو ينظر إلى الحديقة. أحياناً، كان يلمح البنية شبه عارية، وحيدة دائماً وطافية فوق جزيرة من نور نباتي. وأحياناً أخرى، لم يكن

يقدر على رؤيتها، لأنه كان يغفو رازحاً تحت ضغط الشيخوخة، ووطأة الحرّ وثقل العمل اليوميّ؛ لم يكن يجد أحداً يفضي إليه بما يراه؛ وذلك ما حدا به إلى أن يقول من حين لآخر، شيئاً معيناً عن الطفلة لزوجه التي أخذت روحها تنكمش أكثر فأكثر حتى زالت كل مرارة بينهما.

ذات يوم، استيقظ مذعوراً وهو تحت الصفصافة، وراحت عيناه تتحرّيان أشجار الحديقة دون أن تريا أحداً. لكنّه ما لبث أن رأى وراء الأسلاك، تحت شجيرة ذات ظلّ ظليل، عينين كبيرتين عميقتين صافيتين، تحدّقان فيه من بين الظلال، وأحس بالخوف يلسعه.

تلكما العينان كانتا عيني الطفلة الصغيرة التي أخذ جسمها يتحرّر من انعكاسات الأوراق الخضر. أحسّ بالخجل وكأنه قام بعمل مشين بنومه تحت صفصافة هي ملك الغير. وأخذ يلملم نفسه لينهض ويسير. لكنه، قبل أن يشرع في ذلك، كانت البنيّة اقتربت من السياج صائحة.

- «حبّو... !»

كل الدهشة الراقدة معطّلة داخل العجوز أخذت تنفجر عن بسمة:

- «ديندو... !»

عينا الطفلة كانتا كبيرتين وصافيتين جداً حتى بدتا كأنهما نقطتان فوسفوريتان وسط وجه صغير محاط بأوراق بُنيّة. ظلاّ يتبادلان النظرات دون حراك وهما يبتسمان.

- «ما اسمك، يا آنسة؟»

لم تفهم بادئ ذي بدء. وكان على الرجل أن يعيد السؤال. فأجابت الطفلة هذه المرة مبتسمة:

- «آنا ماريّا...»

لم يستطع العجوز أن يكبح نفسه، فأدخل يده من بين الأسلاك ليداعب شعر آنا ماريا. فتجهّم وجهها وكأنها تفكر. ثم ضحكت، ونظرت مباشرة إلى عينيه الزائغتين من الدهشة، وأرته جرابا تحمله معلّقا بذراعها، صاحت:

- «كاتيدا . . . !»

- «جميلة، جميلة حقيبة الآنسة!»

- «(ز)ميلة، ، (ز)ميلة، أنت،ديندو!» -أجابت آنا ماريا.

ابتعدت عن الأسلاك، وكأنّما ذابت بين ظلال الأوراق ولوحت بيدها مودعة ثم اختفت بين أدغال الحديقة.

- «يا للمسكينة الصغيرة . . . !» -قال الرجل

هذه الليلة، أخبر زوجه بأن الطفلة الصغيرة تدعى آنا ماريا، ولم يقل لها شيئاً آخر. لكنّ جسم المرأة انحنى مُهاناً بوحشيّة فوق النار التي كانت تغلي فوقها الثياب. ثم أعلمته أنه لن يجد شيئاً يأكله هذه الليلة. كان ذلك أمراً مألوفاً للعجوز. فاستلقى باكراً لأن المرء لا يحسّ بالجوع وهو نائم.

واضطجعت بصمت وهدوء شديدين إلى جانبه

- ٢ -

في البيت الواقع في الجانب الخلفي من الحديقة، كان أبوا آنا ماريا مضطجعين جنباً إلى جنب في سرير ضيّق كله فوضى. ضوء يشبه ضوءاً تحت الماء، كان ينفذ من لويحات النافذة الخضر المغلقة ويسقط على الجسدين المتلألئين من التعرّق، ويغرق الغرفة الصغيرة: كان طنين الذباب يجعل الهواء في اضطراب، الهواء الرطب العابق برائحة تعرّق جسدين وأعقاب سجائر وملاءات متّسخة.

كان الرجل يتحرك بصعوبة. مرّ بيده على صدره وبطنه ليجفف العرق. ولما مسح راحته بالمخدّة، زمّ فمه اشمئزازا دون أن يفتح عينيه. ثم شقّهما ببطء، وكأن التعرّق يثقل بشدة على جفنيه. واستلقى على جنبه وهو يتأمل جسم امرأته. كان جسماً جميلاً، جميلاً وأبيض؛ كان مفرطاً في الطول، ربما سمينا، لكنه جميل، حتى اذا لامست الملاءة حدود هذا الجسم، ارتسمت عليه طيّة من لحم وافر مكتنز. كان الرجل يعلم أنها تنام بالسراويل الداخلية فقط. رأى شعرة من شعره الأسود المجعد مطبوعة على جسدها الأبيض عند أصل العنق. انتزعها ببطء مخلّفاً خطاً خفيفاً أحمر في البشرة، ثم أخذ اللون يميل إلى الصفرة. قام بحركات رشيقة وقتل حشرات مختلفة دقيقة خضرا كانت تأتي من أعشاب الحديقة حيث كان كل شيء يطفر وينمو، فيجد له مستقراً في جلد المرأة. إحدى الحشرات التي تكاد لاتُرى، أقامت في إبطها المكشوف لأنها كانت تنام وذراعاها معقودان خلف رأسها.

فسحقها بضغطة مقصودة. فابتسمت لذلك، وداعب زغب إبطها وقفا عضدها الذي كان انصع بياضاً من سائر أنحاء جسدها. استدارت نحوه وتعانقا.

ثم أغفيا شيئاً يسيراً، إلى أن صاح الرجل وقد فتح عينيه على مداهما:

- «إنها الثانية بعد الظهر. أنا جائع!»

تمطّت المرأة وهي تجمجم متثائبة:

- «أظنّ لايوجد شيء نأكله».

وتثاءب الاثنان معاً.

- «رأيت بيضاً...»

- «صحيح! أطعمت الطفلة بيضاً في الصباح».

- «ياه! وماذا يهمّ؟» -قال الرجل وقد استدار في السرير واستلقى واضعاً رجله على فخذ امرأته. تحرّرت هي من هذا الثقل، واعتدلت في جلستها قليلاً، مخلّفة بقعة من العرق على غطاء السرير. اتكأت على كتف زوجها العريض الصلب، وراحت أصابعها تداعب عضلات كاهليه.

ثم كفّت عن ذلك، لأنّ تدليكها اضطرّها إلى بذل جهد. تناولت مشطاً وجدته على الأرض قرب السرير إلى جانب منفضة ملأى بسجائر دُخِّنت حتى منتصفها. وبحركة خبيرة جمعت شعرها الرطب وعقدته وراء نقرتها. ثم وضعت قدميها في الحذاء الأبيض المتّسخ ذي الكعب العالي واتجهت عارية الى المطبخ.

في الواقع، لم تجد غير البيض في الثلاجة. لما رأت الأطباق المتسخة، المتخلّفة عن فطور هذا الصباح وعشاء الليلة السابقة، هزّت كتفيها علامة لامبالاة، وتناولت صحوناً نظيفة كيلا تضطرّ إلى غسل صحون أخرى. وفيما كانت تطبخ، فتحت المذياع على برنامج راقص صخوب. أخذت تؤدّي الايقاع الموسيقي بكعب حذائها العالي. كان جسمها يتأرجح عارياً كلما قلّبت البيض.

- «أيقظتني بموسيقاك!» -صاح الرجل من غرفة النوم.

- «ياه! كفاك نوماً!»

نهض وبدأ تمارين رياضيـة أمام مرآة طويلة . وبين انحناءة وأخرى، سأل :

- «اسمعي! أين الطفلة الصغيرة؟»

- «في هذه الأنحاء.» -أجابت. «اليوم أحد. وهكذا تعلم أنها لا ينبغي لها أن تزعجنا».

- «هي صغيرة جداً حتى تعرف أن اليوم أحد».

- «لكنها تعلم أنها لايمكن أن تزعجنا مادمت هنا».

أعدّت صحناً لزوجها وآخر لابنتها. أما حصّتها فقد وضعتها في صحفة لأنها لم تستطع العثور على صحن نظيف، ولم تشأ أن تغسل صحناً آخر. ارتدت غلالة رقيقة وارتدى زوجها سراويله الداخلية، ثم نادت آنا ماريا صارخة وهي تقف في باب البيت. جلس الثلاثة إلى مائدة في (الصالون) الصغير حيث كانوا يتناولون الطعام عادة. لما رأت آنا ماريا البيض قالت :

- «لا أ(لـ)يد».

لكنهما لم يسمعاها، لأنهما كانا يضحكان من النكات المكتوبة في المجلّة المصوّرة. ولما لاحظت المرأة بعدئذ أن آنا ماريا لم تأكل شيئاً وأنها تحدّق فيها بعينيها الكبيرتين الصافيتين الشفّافتين، أحست بالانقباض، وقالت لها بجفاء :

- «كلي . . . !»

نظرت الطفلة إلى البيض مرّة أخرى وقالت :

- «لا أ(لـ)يد».

- «اذاً، كلي خبزاً واخرجي»

وخرجت آنا ماريا.

-«أأكلت شيئاً هذا الصباح؟» -سأل الرجل.

- «نعم. أعتقد ذلك. كنت شبه طائشة، وهكذا لم أنتبه».

- «طائشة؟ ولِمَ؟»

- «أتسأل، بعد كل ما فعلته بي الليلة الفائتة، أيها المتوحّش؟»

وضحكا.

- «اغسلي الصحون على مهل».

- «لاأنوي ذلك. أتظن أنني تزوّجت بك لأكون خادمة لك وللصغيرة؟»

تركا كل شيء فوضى كما كان من قبل، ورجعا إلى مخدعهما. وبعد لحظات من الألعاب الغامضة والتظاهر بالنوم، اقترح:

- «اسمعي، ما رأيك لو ذهبنا هذه الليلة إلى السينما؟»

- «لابأس! علينا أن نجعل الصغيرة تنام أولا، ونقفل عليها».

- «جيد... كالعادة دائماً».

- «أجل. لكنها غريبة جداً، ولاأدري ما يحدث لها. ألم تنتبه؟ أحياناً... أجدها. لاأدري.. وكأنها تثير فيّ خوفاً. تصور، ليلة عدنا من السينما لم تكن نائمة. وانما كانت تتظاهر بالنوم. وكان ذلك حوالي الواحدة صباحاً».

- «وماذا في ذلك؟»

- «لاأدري. إنها جد صغيرة».

- «لاتكوني حمقاء. وما أهميّة ذلك؟ أمامها النهار كلّه لكي تنام إن شاءت».

- «كان فيها دائماً شيء من الغرابة، حتى أراها متخلّفة في النُّطق. أعلم أن الشيء الوحيد الذي تحب اللعب به، جراب صغير تضع فيه حذاءها. لاأدري أية لذّة تجدها فيه... تسميه كاتيدا!»

- «أم م... هي غريبة!»

- «وثقيلة الدم أحياناً حين تنظر إليّ بعينيها اللتين تشبهان عيني الحيوان. تصورّ، أني اليوم السابق، كنت راقدة على المقعد الكتّاني في الحديقة. أنت تعلم أنّ الحرارة تبعث فيّ النوم. . . »

داعبت شعر صدر زوجها الرطب ضاحكة.

- « . . . ثم نمت، واستيقظت فجأة، ولما فتحت عيني، لم أجدها قربي. بل كانت، أو بالأحرى كانت عيناها تنظران إليّ ببلاهة من تحت شجرة الدبق. ولما تنبّهت إلى أنني استيقظت خرجت راكضة».

- «آه، ما أغباك! وهذا ماذا فيه؟»

- «لاأدري، إنما هو أمر غريب. في يوم آخر قضيت الصباح كله وأنا أسعى خلفها لأمسك بها. أو ما أدراني! غير أني لم أكن أملك أيّة رغبة في أن أفعل شيئاً كنت كأنني تعبة. . . »

- «ومتى كنت غير ذلك، يا ضعيفة؟»

- « . . . إلى أن أمسكتُ بها أخيراً. حينئذ، أخذت تعانقني وتضحك وتتودّد إليّ. لكنها تكون أحياناً مسلّية قائلة لي: «حبّو!» و«(ز)ميله». أتعلم أنها الكلمات الأولى التي تعلّمت قولها، لاأدري أين، لأنك لم تقلها لي أبداً».

- «أبداً؟ كيف!»

- «كلا! أبداً!»

- «لكنني أقول لك أشياء أحسن منها».

- «حسن! لكن، غير هذه الكلمات. إذاً، أخذت تبدي لي توددها على خير ما يكون. وكنت في غاية الخوف أتعلم ماذا فعلت؟»

- « . . . كلا!».

- «عضّتني في أذني».

وضحك الرجل.

- «عضّت أذنك؟ وكيف عرفت هذه الشيطانة أن ذلك يعجبك؟»

- «لاتكن أحمق. لاتضحك. أنظر، هي لم تعضّني بلطف. وإنما عضتني بقوة جداً، وكأنها تريد أن تقطعها بأسنانها الصغيرة الحادّة. أحسستُ بألم شديد وصرخت وخلّصتُها منها. ثم هربت، وكأنها علمت أنها عملت شيئاً سيّئاً. كان ذلك في الصباح. لم تعد وقت الغداء، ولا خلال النهار كله. وكما تعلم، يصعب عليّ الخروج والتجول في الحديقة وبين الأشجار، فلم أسع باحثة عنها. لكنني عاقبتها لما عادت ليلاً وقد مُلِئ وجهها خوفاً».

- «وماذا صنعت لها؟»

- «وماأدراني! كيف تريدني أن أتذكّر؟»

ضحك الرجل مرة أخرى، لكن، هذه المرة من نكتة في المجلّة الملوّنة التي كان يتصفّحها خلال المناقشة. كان يُحسّ برائحة جسم زوجه الرطب قليلاً إلى جانب جسمه. وشرعا يدخّنان. ذهب أحدهما وأتى بالمذياع للاستماع إلى الموسيقى.

وأخذ ضوء الحديقة الأخضر بالشحوب.

- ٣ -

ظل الرجل على دأبه في تناول الغـداء كل يوم تحت الصـفـصـافـة. لم يعـد بحاجة إلى تقصّي الحديقة، لأن البنيّة كانت تنتظره قرب الأسلاك الشائكة. كان يبدو أنها تخمّن بشكل من الأشكال ساعة الغداء، فإذا أبطأ عليها، كانت تنظر إليه بشيء من القسوة، لكنها سرعان ما كانت تبتسم مغمغمة:

- «حبّو! ديندو..!».

كان العجوز يجهد في رفع آنا ماريا فوق السياج لتجلس إلى جانبه، وكانت تتيح له أن يشعل النار ليسخّن الشاي. كان يأكل خبزاً، ونادراً قطعة لحم، وبصلاً، وبندورة. وكان يشاطرها هذا الطعام. فهي كانت تبدو دائماً جائعة.

أحد عمال البناء فاجأ العجوز وآنا ماريا، ذات مرة يتحادثان. ومنذ ذلك الحين نغّص عليه رفاقه هدوءه.

- «اسمع أيها العجوز العاشق: كيف حال حبك الصغير؟»

كان يستمع إلى ضحكاتهم بصبر. كان يدفع عربة اليد الملأى بالإسمنت، وساقاه المرتجفتان من الكبر، تكادان لاتقويان على حمله حين يندفع ليقلبها من أجل إفراغها. أما عيناه اللتان غطّاهما التراب والعرق، فكانتا بصعوبة تميّزان العمال الشبّان الذين كانوا يقذفونه بكرات الطين من السقالات.

- «اسمع أيها العجوز الشيطان! احذر قليلاً، فربما سُجنت!»

وفكر في ما قالت له آنا ماريا ساعة الغداء، وعلتْ وجههَ حمرةٌ بالرغم من الوسخ الذي يغطّيه. كانت الطفلة جلست إلى جانبه في الظلّ، وفتحت جرابها الأبدي لتريه زوجاً من الأحذية:

- «انظر، ديندو، (بوطي) (ز)ميل؟»

كانت تضع في الجراب أيضاً شريطة مجعّدة لكنها لامعة. بيديه المتعثّرتين ربطها بشعر الطفلة الأشقر. وهي، لفرحها، راحت تلمس عقدة الشريطة السماوية. أعطته أيضاً أشياء أخرى: كشتباناً، وعلبة دواء، وعلبة كبريت، ورأسَ لعبة مقطوعاً. كان هذا الرأس آخر ما أخرجته من الجراب، وكأنها لم تكن ترغب في أن يراه صديقها؛ أو هي نفسها لاتريد أن تراه. كان رأساً أشقر ممتلئاً ذا وجه شهواني ضاحك.

- «وهذا، ما هذا يا آنسة؟».

واغرورقت عيناها آنئذ بالدمع، فزادهما روعة على شكل عجيب.

- «بشعة . . . !» -تمتمت الطفلة.

- «لماذا؟»

حينئذ حرّكت اللعبة المحطّمة، صائحة:

- «بشعة، بشعة، بشعة!»

ورمت بها بين أعشاب الحديقة. في تلك اللحظة، فاضت عيناها بالدمع. ووقفت بلا حراك تنظر إلى العجوز: وغرقت وجنتاها، وتبلّل جفناها.

حمل العجوز آنا ماريا بين ذراعيه وراح يهدهد رأسها على كتفه حتى هدأ من نحيبها المكتوم. مسح دموعها بمنديله ذاته. حينئذ، قالت الطفلة وهي تداعب بيدها الصغيرة وجهه المجعّد غير الحليق.

- «ديندو! ديندو! حبّو! . . .»

وانصرف الرجل بعد ذلك مسروراً.

في الأماسي، كان يجلس أمام كوخه يدخّن، ويشاهد هبوط الليل فوق سطوح الحي المتنافرة. وهناك كان يفكر أيضاً في الطفلة الصغيرة وحيدة في حديقة كبيرة. دون تخطيط، ودون تذكّر مفصّل للحوادث، كان ينفتح بملء جوانحه ليتيح لحضور آنا ماريا أن يجتاح كيانه. امرأته كانت ترصده دون أن تنظر إليه تقريباً، وهي على ثقة بأنها أمام لحظة فراق، لحظة تنحّيها عن مكانها لأنثى أخرى.

مضى زمن وقد اكتمل تشييد البناء. صُرف العمّال الذين ما لبثوا أن وجدوا أعمالاً أخرى؛ لكن، لم يشأ أحد أن يشغّل كائناً على هذا القدر من الضعف كالعجوز الذي فهم حقيقة وضعه دون لجلجة. وعلى العكس من ذلك، كان يقلقه التفكير بآنا ماريا وهي تنتظره قرب الأسلاك الشائكة عند طرف المدينة الأقصى، لتتحدّث إليه قليلاً، وليقدّم هو، إليها خبزاً وبصلاً.

كانت المرأة تعمل غسّالة، ومن هذا العمل كانا يقتاتان. وكان العجوز واثقاً بأنها لن تعيّره ببطالته، وإن صار صمتها الآن، يكتسب قواماً يكاد يكون صلباً. لكنّها لم تكن تقول له شيئاً. لأنها لم تكن تملك حقاً في شيء. وإنما كانت تراقبه جالساً متفكراً عند باب الكوخ صباحاً وظهراً ومساء. كان يجلس ويلقي بيديه فوق ركبتيه ويبتسم بصعوبة. وبذلك كان يبدو أنّه يعدّ الثواني التي تتضمّنها كل ساعة من الساعات. وكانت شفتاه تنفرجان بشكل يكاد لا يلمح، وكانت زوجه تقرأ في تلك الحركة: «يا للمسكينة الصغيرة!»، وتجد في هاتين الكلمتين الموجّهتين إلى غيرها، هلاكها ذاته.

ومع ذلك، مضى العجوز مرّة أو مرتين ليرى البنيّة. كان يسرق من أجلها كسرة خبز من زوجه، ويتمتم من بين أسنانه أنه ذاهب ليبحث عن عمل. وكان يخرج باكراً جداً، زوجه كانت تعلم أن ذلك غير صحيح.

كان يسير متمهّلاً، ويستريح من حين لآخر إلى جانب شجرة في حديقة ملتقطاً من الأرض صفحة جريدة ليقرأها ريثما يستعيد قواه. وحتى إذا أحسّ بالراحة، تابع طريقه ببطء إلى أن يخترق المدينة كلّها ويصل إلى الحديقة حيث تكون آنا ماريا بانتظاره وقت الغداء، كما كانا يفعلان من قبل تحت الصفصافة.

أول ما كان يراه العجوز، العينان العميقتان الزرقاوان المشعّتان خفيةً بين الأغصان، وما تكاد الصغيرة تراه مقبلاً، حتى تندفع صوبه مبتهجة ليرفعها من فوق السياج. حينئذ، كانا يأكلان، ويتحدّثان وكأنّ شيئاً في الدنيا لايعكّر صفوهما.

أصبحت المرأة لاتستطيع تحمّل الموقف أكثر مما تحمّلته: فقد انهار ذلك القليل، القليل الذي بقي لها من عالم لم يكن سخياً عليها، والذي أخذ يتآكل مع مرور السنين شيئاً فشيئاً. كانت تقضي أيامها وهي تعمل بقسوة وشراسة لكي تقتل في داخلها كلّ ما يبعث على الإحساس. لكنها، قبل أن تستسلم استسلاماً كاملاً للمحتوم، دفعت بها جذوةٌ مختبئة من الطاقة لاتخاذ قرار.

فاشترت ذات يوم، ظرفاً من السكاكر، وركبت حافلة متجهّة الى الحديقة المجاورة للبناء حيث كانت تقيم الصغيرة. جلست تحت الصفصافة. كانت الحديقة في الواقع، واسعة الأبعاد وخضراء. كانت ترفاً من الأشجار والطراوة والعمق. قربها كانت لاتزال بقع سُوْد خلّفتها الحرائق التي كان يسخّن زوجها فوقها الشاي. وجلست تنتظر.

وفجأة، لمحت الطفلة الصغيرة من بعيد، وهي تخوض في مياه الساقية بجسمها الأبيض الذي جرحته انعكاسات الضوء على الماء. لما اكتشفتها، انعقدت في قلبها الدهشة والبلادة والبغض، ووقفت قرب السياج لكي تهرع إليها آنا ماريا حين تراها.

لكن آنا ماريا لم تنظر إليها. ومع ذلك أخرجت قدميها من الماء، وراحت تقترب شيئاً فشيئاً من الصفصافة وهي تدور حول الأجمات والتوت البرّي دون أن تلحظها المرأة. لكنها وقفت محاذرةً على مسافة معينة.

وحينئذ فقط، لمحت المرأة العينين العميقتين الزرقاوين وهما تنظران إليها من الظل بقسوة، وتتشبّثان بها بصفاء يشعّ منه العداء. وبجهد أخير استطاعت أن تنتزع بسمةً من أحد جوانب نفسها. لكن الطفلة ظلت ساكنة وراء الأجمة وهي تنظر إليها.

أخذ الضعف يدبّ إلى قلب المرأة. كل شيء راح سدى. وكل شيء كان دائماً دون طائل. وبآخر مسعى أرتها السكاكر قائلة:

- «أتريدين قطعة يا آنسة؟»

هزّت الطفلة رأسها بالنفي. وألحّت المرأة:

- «إنها طيبة...»

- «لا أ(ل)يد...» أجابت آنا ماريا.

وأخيراً، انهار قناع الحزن والإخفاق كله على وجه المرأة التي أخذت تتأهّب للرحيل. في هذه اللحظة، تقدمت الطفلة بضع خطوات.

- «بشعة! بشعة! بشعة!» -صاحت وهي تنظر إليها محدقّة.

وفرّت المرأة مهزومة.

لما وصلت بيتها، قالت للعجوز إن العائلة التي تعمل لديها ترغب في أن تقيم عندها لتقوم بخدمة البيت وإعداد الطعام. زد على ذلك، أن إحدى جاراتها كانت ترغب في أن تستأجر العقار الذي يقيمان عليه، وأنها ستغادر غداة اليوم التالي. ظلاّ صامتين، ثم بدا للرجل أنّ زوجه تسأله من أحد أركان الغرفة:

- «وأنت، ماذا ستعمل؟»

- «لاأدري!» -أجاب بصوت عالٍ.

ونظرت إليه بدهشة.

قد كان مضى شهر لم ير الرجل الطفلة خلاله. كان عجوزاً جداً ومرهقاً للغاية فبدا له مستحيلاً أن يسير إلى الطرف الآخر من المدينة.

لكنه، غداً صباحاً، سيتوجّه إلى وداع الطفلة حين تغادر زوجه البيت. وبعد ذلك، على الدنيا العفاء. فمن الخير له أن يلجأ إلى مكان مقفر أو جبل مثلاً، وينتظر حلول الليل لكي يموت. فقد كان واثقاً بأنه ما إن ينكبَّ على الأرض ويتمنّى الموت حتى يأتيه عاجلاً.

في صباح اليوم التالي، أخذ آخر كسرة خبز لديه. وببطء أشدّ عما ذي قبل، سار باتجاه حديقة آنا ماريا. كان اليوم أحداً. ولاذ الناس الذين كانوا في الحديقة إلى ظل الأشجار، فلم ينظروا إليه، وكأنه غير موجود.

كانت البُنيّة تنتظره كالعادة قرب الأسلاك الشائكة، وغمّته المفاجأة بأن يرى طفلة جد صغيرة في حديقة كبيرة حقاً، كما غمّته رؤيتها أولّ مرة.

- «يا للمسكينة الصغيرة!» -قال في نفسه وهو يقترب منها.

- «حبّو!» -غمغمت الطفلة حين رأته.

رفعها من فوق الأسلاك الشائكة وعانقته آنا ماريا وقبّلته ضاحكة.

- «آنستي الجميلة!» -صاح العجوز مرة بعد أخرى وهو يداعبها بيديه القاتمتين.

- «وأين جرابك؟» -تمتم بعد دقائق من ذلك.

أظلم وجه آنا ماريا فجأة، رفعت كتفها وقالت:

- «لا... لا...»

مكثا معاً فترة طويلة تحت ظل الصفصافة إلى أن خيِّل إلى العجوز بأن الأوان آن كيما يفترقا. ووضعها في الجانب الآخر من السياج وداعب رأسها الأشقر من خلال الأسلاك الشائكة.

- «وداعاً، يا آنسة..!»

نظرت إليه بهلع وكأنّها فهمت كل شيء.

- «لا، لا! حبّو، لا، !» -قالت وقد كبرت عيناها بالدمع.

- «وداعاً . . . !» -كرّر الرجل.

احتجزت آنا ماريا يدي العجوز بقوّة. لكنّها ابتسمت فجأة وكأنها رسمت في ذهنها خطة. جففت دموعها وقالت:

- «انتظر، انتظر . . . كاتيديتا!»

رأى الرجل صديقته تضيع بين أغصان النبات، وكأنه يرى الطفلة الصغيرة لآخر مرة وحيدة، هاربة بين جذوع أشجار الحديقة الكبيرة وأدغالها.

فتحت آنا ماريا باب بيتها ودخلت القاعة مغمغمة!

- «كاتيدا، كاتيدا . . . !»

وراحت تبحث عنها في المطبخ، في الحجرة، في الخزانة، لكنها لم تجدها. تردّدت قليلاً في دخول غرفة والديها. لكنها دفعت الباب. في الضوء الأخضر المسكون بالطنين، فكّ الزوجان فجأة عقدة عناقهما؛ ولما شاهدا البنيّة تغطيّا بالملاءة مخجولين، غاضبين.

سمرّت نظرات المرأة ابنتها في الباب.

- «أيتها الصغيرة الحمقاء!» -صرخت بها وقد انتصبت قليلاً.

كان شعرها منتفشاً. وتلفعّت بجانب من غطاء السرير.

- «ألا تعلمين أنك يجب ألا تزعجينا؟» -صاح الرجل.

- «كاتيدا!» -غمغمت آنا ماريا باحثة عنه بنظرها في أرجاء الغرفة المثقلة بأجواء حميمية الأبوين.

- «قلت لكِ، لا أريد أن تلعبي بهذا الجراب. ستضيعينه. هيّا اخرجي!»

- «الأفضل أن تعطيها الجراب كيما تخرج».

جمجم زوجها وهو يمد الملاءة لتغطي جسمه .

- «هو هناك ، فوق المقعد . خذيه واخرجي!»

قبضت الطفلة على الجراب وخرجت راكضة دون أن تنظر إلى أبويها اللذين عادا فغرقا في السرير منشرحين بعد انقباضهما .

ركضت آنا ماريا خلال الحديقة . قفزت ، أو بالأحرى ، طارت فوق الساقية معترضة قلائد النور الطافية التي تتسلّل عبر الأغصان مذيبةً كل شيء .

كان العجوز ينتظرها قرب الأسلاك . قالت له الطفلة :

- «أوبّا! أوبّا»

رفعها ووضعها إلى جانبه . كان يرتعد قليلاً لأنّه كان عجوزاً جداً ، وكان يعلم ما سيحدث ، وهو الذي لايعلم في العادة كثيراً . جلست آنا ماريا على الأرض قربه وأخرجت حذاءها من الجراب . وتوسّلت إليه :

- «ديندو ، ألبسني (البوط)!»

ركع الرجل ليلبسها الحذاء بيدين مضطربتين ، ثمّ وقفا تحت الصفصافة : كان العجوز يقف محنيّ الظهر ، قاتم الوجه إلى جانب الطفلة وهي تعلّق الجراب بذراعها . نظر إليها وكأنه يترقب شيئاًما . حينئذ ، ابتسمت له آنا ماريا ، من أغوار عينيها اللامعتين الزرقاوين ، كما كانت تفعل في الأوقات الطيّبة .

- «حبّو!» -قالت له .

أمسكت بيد العجوز ، ودفعته للسير خارج ظلّ الصفصافة تحت أشعّة شمس الظهيرة المحرقة . وشرعت تقوده ، وترشده وتقول له :

- امـ(ـس)! امـ(ـس)!

وتبعها العجوز .

الرجل الصغير

منذ طفولتي الباكرة رأيت أن أمر «الرجال الصغار» مشكلة جديّة. من يُلمّع البلاط؟ من يتولّى تنظيف السطوح من أوراق الأرز، ويدهنها بالنفط قبل حلول الشتاء؟ من يغسل الزجاج وينظّف المداخن ويصلح الخمّ الذي خربته العاصفة الأخيرة تقريباً؟

وكان الجواب الذي لايتبدّل : « الرجل الصغير. »

لكن يبدو أن «الرجال الصغار» كانوا ينتمون إلى عرق مراوغ نادر المثال يعاني من نقص مخيف، حتى كانت الأزمات شائعة جداً عندهم، وكأنها طبيعة فيهم. كان اليأس يدبّ الى قلب أمي أكثر فأكثر كلما رأت الأشياء الواجب عملها تتراكم، فتهرع الى أبي ليساعدها على حلّ مشكلتها بشأن «الرجل الصغير». لكنه كان يتمتم دون أن يرفع بصره عن كتابه الطبّي :

- « لماذا لاتقولين (لماريا ساليناس)، أو (لفاني) ان تعيراك « رجلهما الصغير؟» هما لا تفتقدانه أبداً. »

- « أنت تعيش على القمر ... » - كانت أمي تتمتم.

وكانت تصعد لتحتبس في غرفتها وقد غاظها العتاب المبطّن، بينما يغرق أبي في كتابه مرة أخرى وهو يكاد لايسمعها. في نظر إمرأته، كل من لايعني حتى التخمة من القلق على المسائل المنزلية، كان يعيش خارج مانسميّه «الواقع»، اي على القمر. كنت وأخي الأصغر نقتسم حجرة واحدة. وكنا، بعد أن تطفأ كل الأضواء، نفتح النوافذ على مصاريعها ونطل برأسينا من بين العشب المتسلّق الذي يغطيها.

خلال صمت الليل الصيفي الصافي، كان يسمع خرير الماء المنبثق من خرطوم يسقي شجرة سرو؛ أونلمح «تشينا» كلبتنا الضخمة ذات اللون الدراقي تسعى بين الأزهار التي بهتت ألوانها تحت ضوء القمر.

أخي كان يزعم انه يرى قسمات والدنا في وجهه البدر الضاحك الأصفر - الليموني، والمعلّق فوق سطح البيت المحاذي لبيتنا. أمّا أنا، فعلى العكس من ذلك، كنت أتمنّى لو أشقّ هواء الحديقة وأصعد بنوع من السحر الأبيض، نحو الكوكب الوديع، حيث يوجد حسب قول والدتي، مكان لكل من لايفهم تمام الفهم، أن ندرة «الرجال الصغار» كارثة منزلية حقيقية.

«الرجال الصغار» نادراً ماكانوا يمكثون طويلاً في بيتنا. بعضهم كان يبدو كخير مايكون الرجال في البدء لكننا لانلبث أن نكتشف أنهم ليسوا نماذج للأمانة والنشاط، فنعلّمهم أن خدماتهم أصبحت غير ضرورية. بعضهم كان أقلّ حذراً، فكانوا يجلبون على أنفسهم عداوة ماريّا باييخو، طباختنا المستبدّة العجوز، فتقدّم إليهم طعاماً رديئاً لايغني من جوع، حتى يقرروّا من تلقاء ذاتهم ألايعودوا. وإذا كان الرجال الصغار يفرّون بحثاً عن آفاق غامضة أوحريات معيّنة، فإنهم كانوا يعودون الى البيت بين فينة وفينة متباعدة، طلباً للعمل.

كثير من «الرجال الصغار» جاؤوا وعملوا عندنا بشكل متقطّع ثم اختفوا، منهم (كوتشو) الذي كانت تغطّي عينيه سحابة زرقاء؛ وآمبروزيو الذي كان خادم كنيسة ويميل الى السمنة، ويضرب الى البياض؛ وخوان الأحمق، وقد لُقّب بهذا اللقب تمييزاً له عن عامل آخر يحمل ذات الاسم.

اذكر اكثر ماأذكر، خوان بيثكاراً أمير الرجال الصغار ونموذجهم. وقد مكث في بيتنا أطول مدّة وإن كانت على فترات متباعدة.

ذات مساء، وصلت والدتي ووجهها يشعّ رضا. القت بقبعتّها دون اكتراث، ثم سوّت ذؤابتها أمام مرآة المدخل الكبيرة، وتأملت بطرف عينها الحجم الغامض الذي راح ظلّها يتّخذه، قبّلت والدي الذي كان يقرأ قرب المدفأة وجلست الى

جانبه. فنظر إليها بمؤخّر طرفه مخمّنا أن زوجه حلّت في نهاية الأمر مشاكلها المنزلية الدرامية، وقال بشكل مبهم:

- «أراك مسرورة...»

كنت حينئذ في السابعة من عمري، لكنني كنت أعلم أنّ والدتي تُسرّ أن يُنتزع منها الحديث عن همومها برجاء وتوسّل. فلم أفاجأ اذ سمعتها تقول:

- «أم م، نعم، بعض السرور».

غرق أبي في قراءته مرة أخرى، تاركاً الوقت يمضي حتى ينفد صبر زوجه فتقص عليه كل شيء. وكالعادة أخذت نظرة والدتي تجوب أنحاء القاعة بحثاً عن شيء تصلحه أوتضعه في مكانهالصحيح، وأمعنت النظر فيّ فجأة. كنت مستلقياً قرب الكلبة «تشينا» التي كان بطنها ينتفخ هذه الأشهر الأخيرة، مثل بطن أمي، وأنا ألهو بقصّ الصور من المجلاّت العتيقة. كان حذائي وجورباي ملوثّةً بالطين، لأنني قضيت المساء وأنا ألعب وحيداً في الحديقة، تحت المطر، وقد تجنّبت كلّ حذر.

- «لماذا لوثّت نفسك هكذا؟»

وتابعت قصّ الصور وكأن الكلام لايعنيني.

- «لماذا لوثت نفسك هكذا؟ ألم أقل الايسمح لك بالخروج إلى الحديقة حين تمطر؟ ماأكاد أخرج، حتى ينقلب البيت رأساً على عقب. لاأدري فيما يفكر هؤلاء القوم. كلهم يعيشون على القمر! انظر الى أبيك: أيظن أنه، بدسّ أنفه في الكتاب، يعلم واقع الأشياء؟».

رفّت بجفنيها متأهبّة للبكاء. رفع أبي نظارته ووضعها على الصفحة التي كان يقرأ فيها وأغلق عليها الكتاب؛ وطوّق امرأته بذراعه وضمّها إليه. أبدت مقاومة في البدء، لكنها راحت تستسلم بعدئذ، وظلاّ جد متلاصقين متكلّمين بصوت خفيض. كان أبي يستمع وقد سُرّي عنه.

- «... أخيراً، استطعتُ إقناع (تريسا باريّغا) أن تعيرني رجلاً صغيراً يعمل عندها. لكنّ إقناعها كلّفني جهداً كبيراً. نعم، هو صبي. لكن، يقال إنه من خير الصبيان وأنشطهم جميعاً. غداً صباحاً، سيقدم للعمل عندنا.»

استمراً في حديثهما. والآن صارا يتحدّثان عن أشياء لم أفهمها. أنا لم أكن موجوداً في نظرهما. أما الكلبة «تشينا» فكانت تشخر وقد تكوّمت ككبّة صوف لاشكل لها، أمام المدفأة. جمعت أوراقي وصعدت إلى غرفتي على أطراف أصابع قدميّ دون أن يلحظاني.

خوان بيثكارا وافانا في اليوم التالي. في تلك الأثناء، كان فتى قويّ البنية، غامق البشرة، في السابعة عشرة من عمره، أي، يكبرني بعشرة أعوام. ساقاه كانتا أميل الى القصر، وعنقه غليظاً، وجذعه قوياً ربيلاً، ووجهه واضح القسمات ينفرج عن بسمة عريضة جداً حتى كانت تسري في كيانه كله.

لما عدت من المدرسة، لمحته واقفاً على قناة أعلى الأفاريز. وكان يصفر لحناً بدقّة وخبث محبّب. كان يخطو خطوات كبيرة واثقة، كأنه يمشي على أرض يابسة.

- «سيسقط!» - قلت للخادمة التي كانت تحمل حقيبتي.

واستدار خوان محافظاً على توازنه وكأنه يقوم بفنّ من فنون السحر.

- «أهلاً، ياصغيّر!» - صاح من علُ.

وإذ رأيت أنه يُرفق كلماته بحركات راقصة، دنوت من الخادمة ورددّت بصوت أشدّ ضعفاً:

- «سيسقط!-» ...

ونزل خوان السلم لاكما ينزله الآخرون، وإنما كان يتعلّق بيديه من درجة لأخرى، كأنه بهلوان.

لما وصل الأرض انحنى انحناءة لاعب سيرك كانت معبّرة جداً حتي جعلتني أضحك. أمسكت الخادمة بيدي وأدخلتني البيت، لأن الشاي كان جاهزاً. أخذت هي والخادمات الأخر يوقوقن حولي وهنّ يصببن الشاي لكنني لم أعد مركز انتباهن، الآن. من تعليقاتهن أدركت أن خوان بيثكاراً فتنهن. ماريا بايّيخو السوداء كالعقعق، كانت تكره ذوي البشرة الغامقة. وأعظم فضيلة في نظرها، ماخلا التقوى، أن تكون ذا بشرة بيضاء وشعر أشقر. وكنت أدهش إذ أسمعها تقول لرفيقاتها:

- خوان بيثكاراً أسود، هذا صحيح، لكنه جذّاب، بل أكثر الناس جاذبيّة ونشاطاً.

هذا الحماس كان غير مألوف، لأن النساء اللاتي كنّ يخدمننا، كن ينظرن بشيء من الخوف الى « الرجال الصغار». إذ نادراً ماكان هؤلاء يأكلون معهن في المطبخ. وإنما كان يقدّم لهم الطعام عند حدود الدار وراء شجيرات التوت البري فيما يشبه سقيفة كنا نسمّيها المغسل. أضف إلى ذلك أن الخادمات كن يمارسن رقابة صارمة على « الرجال الصغار» للوشاية بهم عند أدنى خرق للأمانة أوفتور الهّمة في العمل. لكنني لم أكن أخشى شيئاً على طعام خوان بيثكارا: لاشك أنه سيأكل معهن، وسيحصل على أطيب اللقمات وأدسمها؛ وربما أتحف بكأس من خمر والدي الجيد. ظلّ خوان بيثكارا يتردّد على بيتنا بانتظام. وكانت أمي تجد، على الرغم من اقتراب موعد ولادتها، فسحة من الوقت لتبتهج بوجود «رجل صغير» على هذه الدرجة من الكمال.

قيل لنا إن الأخ الذي سترسله الجدّة من باريس، لن يلبث أن يصل. لكنّنا خمنا من خلال بعض الأحاديث، وجود علاقة غامضة بين سمنة أمي المفرطة ووصول الطفل. والطريف أن شيئاً مشابهاً كان يحدث للكلبة «تشينا»، وإن لم نسمعهم يذكرون أن إرساليّة الجدّة تحوي جراء. فالرابطة بينهما غامضة جداً.

في الليل، كانت ظنوننا تختلط بالشكّ. حين يُطفأ النور، كان الصمت يُرخي بثقله أكثر من أي وقت آخر.

كان إيقاع تنفّس أخي الموزون يشقّ الظلمة والصمت وموجة أغطيته البيض ومخدّته ببطء.

- «اسمع!» - تمتم فجأة.

- «ماذا؟».

- سنرسل غداً الى منزل عمتي بتريسا.»

- « ولِمَ؟»

- « لأن الأخ الصغير سيصل غداً.»

ثم سكتنا . و فجأة سمعت نشيجاً مكتوماً .

- « ماذا جرى لك؟»

- «لاشيء» .

- « اسكت ، إذاً» .

- تشينا تتألّم . وقالت ماريا بابيخو إنها ستموت وهي مصابة بالسمنة في الأعضاء المصابة بها أمي» .

- « لاتكن أحمق» .

في اليوم التالي ، أرسلنا إلى بيت العمة (باريّغا) في الحارة الثانية . هناك تناولنا الشاي الذي كنا نشتهيه لأنه كان يقدم إلينا مع خبز مخبوز بالبيض ، ومربى البابايّا ، والكعك . لكن ، ماكدنا نفرغ منه حتى هرعنا إلى البيت مرة أخرى . فتح لنا خوان بيثكاراً الباب الحديدي وحذّرنا :

-« ستثيران غضب أبويكما . لأن الأخ الصغير في طريقه ليرى النور» .

ماكنا نعرف ماذا نعمل ، وعما نسأل . كنا نأمل أن تكشف لنا كلمات خوان وأفعاله بثقة الستر عن السر الذي يخفيه الكبار عنّا . هو وحده كنا نستطيع الاطمئنان إليه .

-« تعالا ، سأخبّئكما كيلا ينزل بكما العقاب» .

أمسكنا بيدينا ، وقادنا إلى المغسل .

تشينا كانت ترقد في أعتم زاوية ، على فراش من القش . لم ترفع ذيلها وتحركه كعادتها ، وإنما اكتفت بالنظر إلينا وقد وضعت رأسها الصغير بين قائمتيها .

-« أستموت؟»

سأل أخي . كانت شفتاه اللتان لاتزالان ملطختين بفتات الكعك ، ترتعدان .

وأجاب خوان بالنفي. وكنت على وشك البكاء لما سألت إن كانت أمي ستموت أيضاً. ضحك خوان قائلاً: « بالطبع لا. وهي في حالة جيدة جداً».

-« إذاً، لماذا الكلبة مريضة؟»

-« اقتربا! انظرا!»

وجثونا- نحن الثلاثة- قرب فراش القش. كبّتان عمياوان مبقّعتان بالأبيض والأسود، كانتا عالقتين بطبيبين من أطباء الكلبة. «هزت تشينا ذيلها بضعف. ثم كفّت عن ذلك، وارتسم الجدّ على وجه خوان.

حبسنا أنفاسنا دون أن يرفّ لنا جفن ونحن نتأمّل مناورات « رجلنا الصغير» لمساعدة الكلبة على وضع الجرو الأخير. كنت أمتلك بعض المعلومات الخبيثة الغائمة، حتى كدت أندفع في الضحك لما رأيت مايفعله خوان. لكنّ أنّةً ناعمة جداً أطلقتها (لاتشينا) أرغمتني على تركيز انتباهي بفزع على ماكان يجري. ولد الكُليب مبلولاً، محاطاً بمادة كالقهوة. وبعد أن نظّفته أمه، دفعته بخطمها مرّة بعد أخرى، ثم بقائمتها. لكن الكلب لم يبْدِ حراكاً: كان كتلة هامدة كالخرقة. شرع أخي الصغير ينتحب بصوت خفيض. وطفرت الدموع من عيني، لكنني حبستها لأنني كنت أكبر من أخي بعام واحد. وكان خوان ينعم النظر في الجرو مقطب الحاجبين.

- « هس!... لاتبكيا! سيعيش. . » - تمتم دون أن يرفع بصره.

أخذ يجسّ قوائمه الضعيفة، ويضغط ببطء وانتظام على جسم الحييون بأصابعه الكبيرة الملوثةّ بالدم. وظل يفعل ذلك، فترة بدت لي أبدية. كان وجهه يتصبّب عرقاً. وصارت نظرته قاتمة وانتباهه مشدوداً. كان الصمت قد التهم البيت كله، وانكمش العالم على إيقاع يدي خوان.

وانبعثت الحياة فجأة في الجسم الهامد تحت أثر إحدى اللمسات؛ وتحرك الجرو، وهو يرتجف؛ واستمر خوان بالضغط حتى استقر نبض الحياة بشكل موثوق. حينئذ ألقم الكليبَ أحدَ أطباء الكلبة.

- « لقد عاش!...» - غمغم خوان.

زال التوتر عن وجهه. ولما رأيناه يبتسم زال التوتر عنا أيضاً. أخرج منديلاً متّسخاً وجفف جبهته ويديه.

-« هذا كلبي!» - قلت وأنا أكاد ألمس المولود الحديث بإصبعي.

-« بل كلبي!» - قال أخي.

ثم انهالت أسئلتنا المكبوتة على خوان بيثكارا. وأجابنا ببساطة شفافة جعلتنا نرضى تمام الرضا. في وقت لاحق جيء بنا الى حيث ترقد والدتنا متنعشة على السرير الى جانبها وليد وردي صخّاب. وصاحت:

-« انظرا الى الهديّة التي أرسلتها الجدّة من باريس».

- « من باريس»؟

وكاد أخي يبوح بسر الاكتشاف الجديد لفضح الخداع. لكنني لكزته بمرفقي، فسكت. ولِمَ تقول أي شيء؟ فالكبار يحجبون عنا هذه الحقيقة التي هي أشد سحراً من أساطيرهم التافهة التي ينسجها خيالهم الضعيف. ولِمَ الكلام؟ زدْ على ذلك، قد تبلغ الحماقة بهم مبلغاً، تجعلهم يصرفون خوان من الخدمة... لكنهم لم يصرفوه. فقد ظل خوان بيثكارا سنوات طوالاً « الرجل الصغير» الرسمي في البيت. كانوا يحبونه حباً جماً، ونحن أكثرهم جميعاً. كل ماكانت تلمسه يده الضخمتان، يكتسب حياة، أوينتظم كأنما أعطي ترياقاً. ماكان يوجد شيء إلاويعرف صنعه بمهارة معْجبة بدءاً من خصي الفراريج حتى إصلاح منبّه ماريا بابيخو المشهور مرّة واحدة والى الأبد. كان ذلك المنبّه أغلى ممتلكاتها؛ وكان حتى هذه الساعة يقضي معظم وقته عند مصلح الساعات.

كان خوان بيثكارا يأتي غالباً أيام الآحاد لتناول الطعام في بيتنا. ثم يقودنا في نزهة الى الهضبة. علّمنا كيف نصنع طيارات ورقية ونجعل لها رؤوساً. وعلّمنا صيد العناكب والخنافس والإمساك بها دون شعور بالإشمئزاز حتى صرنا نملك أنفس مجموعة حشرات في المدرسة. ظل خوان بيثكارا يأتي الى بيتنا مرة واحدة على الأقل في الاسبوع لتلميع (أباجور) النوافذ وإصلاحه، ولتنظيف الخم وتنظيم الصناديق في السقيفة.

كنا نجهل تمام الجهل حياة « رجلنا الصغير » خارج منزلنا، كنا نسأله عنها أحياناً. لكنه كان يتهرب عامةّ بإلقاء نكتة من نكاته.

- « لو لم يكن خوان هذا مغروراً جداً، لكان بالإمكان صنع شيء من أجله».

كانت تقول أمي، لأن تسليتها المفضلّة، بعد أن صرنا كباراً، أن تصنع «شيئاً» للناس.

- « هذا الخنزير، لابدّ من أن يكون له امرأة وكومة من الخنانيص حولها».

كانت ترى ماريا باييخو.

- «وماأدراكم جميعاً بما قد يحدث للمرء!»

كان خوان يتمتم وقد تجهّم وجهه لحظة. لكنه كان يعود سريعاً ليدندن بأغنية صغيرة، ويضحك.

كان يبدو كمن ليس له بيت ولاعائلة ولاأصدقاء. وكأن وجوده يبدأ لحظة دخوله حديقتنا صافراً، دون أن يضغط على الجرس، وإنما يعلن عن مجيئه جَرْيِ الكلاب ونباحها المبتهج به. كنا نهدي إليه ثيابنا القديمة كلها: البزّات والقمصان والأحذية. وجاء وقت صار فيه خوان بيثكارا صورة « لرجل صغير» في قمةّ الأناقة. لكنه مالبث، بعد ذلك، أن تخلّى عن لبس الثياب التي نهديها إليه وعاد الى لبس ثيابه البائسة البالية.

-« وما أدراكم بما قد يحدث للمرء!»

ذلك الوقت، أخذ خوان يتغيّب عن البيت. في البدء، كان غيابه لمدة اسبوعين أوثلاثة أسابيع. أول مرة زعم انه كان مريضاً. لكن أبي شجعه وقال له إنه في صحة جيدة وأعطاه بعض الأدوية، لأنه، في الواقع، كان يبدو أنه ليس على خير مايُرام. ثم صار يقدّم أعذاراً واهية، ثم أصبحنا لانسأله. أعصاب أمي التي كانت على شفا ثقة بأن أزمة « الرجل الصغير» أصبحت تنتمي الى الماضي، أخذت تنهار مرة أخرى.

صار غياب خوان بيثكارا أكثر شيوعاً كلما كبرنا، أنا وأخي. كان يكلمنا باحترام مضفياً لقب «الدون» علينا. أين كان ينحشر؟ لدى من نستطيع التحقّق من أي شيء حوله؟ تلك كانت الأسئلة التي كنا نطرحها على أنفسنا باستمرار. وهي الأسئلة ذاتها التي طرحها أبي ذات مرة بجدّ على خوان لما احتبسا معاً في مكتبه. عند خروجهما هزّ أبي رأسه الذي سرى فيه الصلع: لافائدة. كان مغموماً لأنه كان يحترم خوان أيضاً، وإن كان احتكاكه به قليلاً. وكان علينا أن نعوّض غياب خوان بيثكارا بتشغيل «رجال صغار» أقل كفاءة.

- «ماأدراكم بما يجري للمرء»!

ذات مرة، انقضت عشرة أشهر دون أن يظهر لخوان بيثكارا اي أثر. لكنّ والدي عاد، ذات مساء، محزوناً وهو يقصّ علينا أن «رجلنا الصغير» في قاعة مرضاه في المشفى، وقد قطع (الترام) ساقه اليمنى. لقد أثرنا أيما إثارة. لكن الأمر انجلى لنا لما تابع والدي قائلاً إن حالة خوان خطيرة على وجه خاص بسبب إدمانه على الكحول.

خوان بيثكارا كان سكران!

من كان يظن أن السكر كان سبب غيابه؟ كانت تصرفاته صبيانية؛ وكان غِراً ساذجاً حتى صَعُب علينا تصديق الواقعة. لكن الواقعة وقعت.

ماذا كان يصنع بكل تلك الأغراض التي كانت تُهدى إليه؟ بالطبع، كان يبيعها وبثمنها كان يسكر ويختفي كيلا يلحظ سرّه أحد.

ذهبت لزيارته في المشفى. هالني رؤية وجهه المنتفخ الذي صار ذكرى غامضة من قسماته السابقة؛ وغار مرحه في حمرة عينيه. لقد صعب عليّ أن أمحو من مخيلتي صورة ثابتة عن (خوان) رشيق دائماً كما رأيته أول مرة وهو ينزل السلم مُعلّقاً بدرجاته. كانت ذراعاه ضعيفتين ويداه الخشنتان تستلقيان هامدتين فوق الغطاء. صار عجوزاً تقريباً، وهو الذي يكبرني بعشرة أعوام فقط. أيّ خلل غامض في عالمه البائس أوصله الى هذا الوضع؟!

- «وماأدراكم بما يجري للمرء!»

بكت ماريا بابيخو كثيراً. كانت تستيقظ متكدّرة المزاج، ويؤلمها صدغاها، ملقية الذنب علينا، أي على الأغنياء جميعاً، حسب عادتها حين يعرض لها شيء. كان ارتداء طبّاختنا العجوز ثيابها للذهاب لعيادة خوان في المشفى احتفالاً طويلاً ومعقّداً حتى ماكان بمستطاعنا الاعتماد عليها في طبخ طعامنا ذلك اليوم. حملت أمي للمريض ثياباً وعنباً.

أما أبي، فكان يوليه عناية خاصة. استعاد قواه بسرعة نسبياً. وجمع له مبلغ من المال من الأسر التي كان يعمل لديها، بهدف شراء ساق صناعية له. لكن خوان بيثكارا لن يعود أبداً «الرجل الصغير» السابق.

بعد عدة أسابيع، رجع خوان بيثكارا الى بيتنا مرحاً رشيقاً، مقيماً دائماً بجوار المغسل وراء التوت البري. لكنّ مزاجه الرائق لم يدم إلا قليلاً: فبعد فترة بسيطة صار متجهّما وضعيفاً. لم يكن يخرج من البيت أبداً لاأيام السبت ولا الآحاد. وكنت أراه دائماً مرتدياً ثياب الخروج التي استطاع شراءها من ادّخاره، جالساً تحت أشعة الشمس، صامتاً، عاقداً يديه، شاردَ النظرة في الفضاء. لم يعد خوان بيثكارا يدندن بأغنية صغيرة أبداً. ويكاد لايحيينا أبداً.

- « وماأدراكم بما يجري للمرء!»

- « أرأيتم كيف تحسّن حال خوان بيثكارا؟» - كانت تعلن أمي - « ذلك أنه أصبح لايشرب. أرأيتم الثياب الجديدة التي اشتراها؟ ألاحظتم أن عرجه يكاد لايُلمح؟ أريده الآن أن يشتري مذياعاً بالتقسيط. هو يكسب مايفيض عن حاجته. أولا وأخيراً، لابد للرجل المسكين من أن يُسرّ بعض السرور».

لكن خوان لم يشتر مذياعاً. ذات يوم، تناول صرّة ثيابه بعد أن عمل بحماس افتر من المعتاد، وانطلق دون أن يودّع أحداً. من نافذة غرفتي رأيته خارجاً. كان يسير والقلق بادٍ على محيّاه. لكنه مالبث هنيهة حتى راح يصفر بمرح. لم يستطع أحد أن يدرك سبب استيائه، ولاالدافع الى رحيله.

يبدو أن الأرض انشقّت وابتلعته. صار خوان، خوان الآخر، خوان الذي ندعوه بالأحمق رجلَ بيتنا الصغير الآن، لكن ماريا باييخو ماكانت تفوّت فرصة حتى تناديه:

- خوان بيثكارا، على عرجه وسكره، أفضل منك.

بعد عشرة أشهر جاءتنا عجوز تلبس أسمالاً بالية، وتضع على رأسها غطاء لاتاريخ له، وطلبت بصوت يكاد لايُسمع من الذلّ، أن تتحدث إلى أحد أفراد الأسرة. كانت إحدى عمات خوان بيثكارا. وبيّنت أن ابن أخيها دخل منذ فترة، بإرادته الذاتية، إحدى المصحات التي تعالج الإدمان على الكحول. لقد باع الرجل الاصطناعية بعد شهرين من شفائه، ليشرب بثمنها.

ارسلنا إليه بعض النقود ليشتري ساقاً خشبية. وسيكون من الصعب عليه أن يبيع هذه الساق. ومالبث خوان أن عاد إلى بيتنا بساقه الخشبية تلك. لم يعد حزيناً، وإنما صار مرحاً جداً كما عهدناه في البدء، وإن خفّ الطلب على عمله.

-« سكيّر مقزّز!» - كانت مايا باييخّو تصرخ في وجهه، لكنّها كانت تقدّم إليه طعاماً بوفرة، وتوليه عناية خاصة.

كان يبيت في بيتنا. إلى جانب فراشه في المغسل، كانت ترى كل ممتلكاته منثورة على الأرض، وهي كتيّب أغان عتيق؛ بعض السجائر التي كان يدخّنها؛ منفضة من النحاس، لايعلم كيف صنعها. ولاشيء آخر. كان يخرج للعمل حيث يُطلب منه، ويُودع نقوده كلها لدى ماريا باييخو لتحفظها له حتى يوم السبت، وكانت تعيدها إليه في الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم، مشيّعاً بتوصياتها. وكان يظل خارج البيت حتى صباح الثلاثاء حين يعود وهو يصفر بشيء من الاضطراب عادة، لكنه راض ونشيط...

حتى اختفى مرة أخرى، اختفاء نهائياً. زارتنا عمته من جديد زاعمة أن خوان باع الساق الخشبية أيضاً. وحملت إليه رسالة بأن يعود. لكن خوان بيثكاراً لم يعد أبداً.

وإذا مارأت أمي اليوم، لعبة مُحطَّمة بيدي حفيدتها الأولى، تردّد عادة:

- «ليت خوان هنا فيصلحها... !»

وحين تسمع نفسها، كان الصمت يخيّم فوق رأسها الأشيب.

خادمات البيت لم يحتملن أبداً عمل «الرجال الصغار» عندنا أكثر من مرتين. إذ كانت عيوبهم تكشف دون صعوبة فيُصرفون من العمل. أزمة «الرجل الصغير» ظلت قائمة أبداً. كنت وأخي نتذكر بيثكارا غالباً. لكن، كلا! لم تكن ذكراه ملحةً إلحاحاً كبيراً. فقد كان علينا أن نعمل كثيراً. والبيت بذكرياته ليس الآن غير باب أوقطعة صغيرة الى حدٍّ ما، من حياتنا.

ذات مساء، كنت أسير مسرعاً في أحد شوارع حيّ بائس. ولما مررت أمام إحدى الحانات، أعطيت صدقة فقيراً، ثيابه بالية بشكل لايُصدَّقُ. وبعد مسافة معيّنة تنبهّت الى أنّ ذلك المتسولّ الذي كان يحدق فيّ بإلحاح دون أن يكلّمني، هو خوان بيثكارا. صار خوان الذي كان يكبرني بعشرة أعوام فقط، عجوزاً. عدت أدراجي الى الحانة. لكنّ المتسولّ كان قد ارتحل...

ماأشد كبرياء خوان! بعد كل شيء، لعل ذلك الرجل لم يكن خوان. أوربما خيِّل إليّ أن هذا المتسولّ الأعرج القابع وسط بركة من القمامة عند باب الحانة هو خوان بيثكارا.

أفكر، أحياناً، أن أبحث عنه. لايمكنني أن أنسى الأغنية المغرضة التي كان يدندن بها حين دخل بيتنا ذلك الصباح؛ ولامهارة أصابعه القاتمة القصيرة حين عَمِل على أن تنبثق الحياة أمام عيني طفل دَهِش.

أفكر بالبحث عنه ولاأدري لماذا. لكن الأعوام تمضي. أما اليوم فإني أسأل نفسي من حين لآخر:

ماهو حال خوان بيثكارا الآن؟

الصين

على هذا الجانب جدار الجامعة الرمادي. وفي الجهة المحاذية جلبة المطاعم المملّة تتردّد بين هدوء محلات بيع الكتب القديمة، وضوضاء المؤسسات حيث الرجال المتعرقون يصلحون الثياب ويكوونها وسط فرقعات البخار. على بعد معين من هناك، تتراجع البيوت ويتّسع الرصيف حول نهاية الحارة الأولى. وعند حلول الليل، يصبح هذا الجزء من الشارع أشدّ أجزائه نشاطاً، فيتجمّع خلق كثير حول مراكز بيع الفاكهة، كالبرتقال ذي القشرة الخشنة، والتفاح الأخضر المصقول كالزمرّد، فتتغير ألوانها بتأثير أضواء النيون الحمر والزرق. هاويات من الظلمة أو الضوء كانت تسقط بين الوجوه التي تتكوّم حول المشعوذ الصخّاب الذي يتقلّد أفعى حية. في الشتاء كانت الشّمال المهترئة القرمزية تغطي الوجوه كاشفة فقط عن البريق المخيف أو المطمئِن، الذكي أو الغبي الذي تبثه العيون فتجعل كل كائن متميزاً عن الآخر. ترام أو آخر يتقدم عبر الجادة العريضة، ويرج كل شيء بصخبه الميكانيكي الهرم. على شرفة طابق ثان، امرأة سمينة تتلفّع بمرطها المطرّز تنفخ في كانون، فتطير الشرار كأنها ذيل نيزك. ويتجلّى وجه المرأة للحظات واضحاً، حاراً، ساهماً.

هذا الشارع شارع عام مثل كل الشوارع الأخرى. لكنه في نظري، لم يكن كذلك دائماً. فقد ساورني الاعتقاد سنين طوالاً أنني الكائن الوحيد صاحب الحق بالمغامرة بالسير بين الأضواء والظلال.

حين كنت صغيراً، كنت أقطن شارعاً قريباًمنه، لكنه ذو طبيعة مختلفة جداً. فيه، كانت أشجار الزيزفون، والمصابيح المزدوجة ذات الأشكال الجامحة، والجادّة الخالية من السابلة تقريباً، تحكي عن عالم مختلف اختلافاً كاملاً. مع ذلك، رافقت أمي ذات مساء إلى الشارع الآخر، وكان الغرض البحث عن أغطية. لأننا كنا نشك في أن الخادمة أختلستها لتودعها، من ثم، أحد بيوت الرهون الواقعة هناك. كان الوقت شتاء، والمطر قد هطل. على نواصي الشوارع، كانت تلمح بقايا من نور مائع. وكانت السحب لاتزال تتجمع فوق بعض السطوح ببقع قاتمة رمادية. كان الشارع رطباً، وشعور النساء تلتصق متهدلة بوجناتهن، وبدأ الليل ينتشر.

عند دخولنا الشارع، انصبّ نحونا ترام صاخب، فبحثت عن ملجأ قرب أمي الى جانب واجهة غاصّة بأوراق الموسيقى. على إحداها كانت صورة صبية وهي تبتسم داخل إطار بيضوي. طلبت الى أمي أن تشتري لي هذه الورقة. لكنها لم تعرني انتباهاً وتابعنا سيرنا. كنت أسير وعيناي مفتوحتان على آخرهما. ولعلني ماكنت أرغب في رؤية وجوه السابلة فقط، وإنما أن ألمسها وأشمها، لأنها كانت تبدو لي مختلفة بشكل عجيب.

أشخاص كثيرون كانوا يحملون رزماً وحقائب وسلالاً، وكل صنف من الأغراض المغرية الغامضة. وسط الزحام، أماط عامل يحمل فراشاً القبعة عن رأس أمي التي ضحكت قائلة:

- « ياإلهي! كأننا في الصين. »

وتابعنا انحدارنا في الشارع؛ وكان من الصعب علينا أن نتحاشى برك الماء على الرصيف المهشّم. عند مرورنا أمام مطعم، اكتشفت ان رائحته محبّبة لما اختلطت برائحة معطف والدتي. كنت أبدي رغبتي في أن أمتلك كل ما تحتويه الواجهات من المزهريات الزجاجية الزرق الغامقة المملوءة بالأزهار؛ أوالقلائد التي نُقشت عليها صور الرايات أومحصلات النقود المصنوعة من الجص على شكل قطط مطلية باللون الأحمر المزرقّ والفضي؛ أوالزجاجات المملوءة بكريات متعددة

الألوان؛ أوصفوف البطاقات البريدية، والدوّام. وكان ذلك يثير الرعب في أمي التي كانت تجيبني بإن كل فيها عادي وقديم. أما ماكان يغريني بشكل خاص فهو محل هادىء نظيف، فوق بابه لوحة يقُرأ فيها:

«الرفاء الياباني.»

لاأتذكر ماذا جرى بشأن الأغطية. لكن الواقع هو أن هذا الشارع حفُر في ذاكرتي كشيء فاتن مختلف. كان في نظري الحرية المغامرة. بعيداً عنه، كانت حياتي تسير ببساطة ضمن نظام مجراها المعتاد. وماكان «للرفاء الياباني» أن يصلح ثيابي مهما كانت رغبتي في ذلك. وإنما ستصلحها راهبات صغيرات أنيقات ذوات أنامل ماهرة. في البيت، كنت أصاب بالإحباط وأنا أفكر كل مساء «بالصين» اسم دشّنت به ذلك الشارع. بالطبع توجد صين أخرى. صين قصص كايّخا، ومغامرات بينوشو. هذه الصين لم تكن تعنيني ذلك الوقت.

ذات صباح يوم من أيام الآحاد، اختصمت وأمي. انتقاماً منها، توجّهت الى مكتبي ورحت أدرس مطولاً، مخططاً للمدينة معلّقاً على الحائط. خرج والدي من البيت بعد الغداء. أما الخادمات فكن يعرضن أنفسهن لشمس الربيع في الفناء الخلفي. فاقترحت على فرناندو أخي الأصغر:

-« أتذهب إلى «الصين»؟

وبرقت عيناه. ظن أننا سنلعب لعبة، كما يحصل عادة أونقوم بأسفار على السلم الخشبي الممدود تحت البرتقالة، أونتقنع بأقنعة أطفال شرقيين.

-«خرج أبوانا، فنستطيع أن نسرق أشياء من صندوق والدتي.»

- كلا، ياأحمق. همست - « هذه المرّة سنذهب إلى الصين».

فرناندو كان يرتدي طقماً ضارباً للزرقة، وحذاء أبيض. أمسكت به من يده، بحذر شديد، وقصدنا الشارع الذي كنت أحلم به.

سرنا في الشمس. كنا ذاهبيّن الى «الصين». كان عليّ أن أجعله يرى العالم. لكن من الضروري، على وجه خاص الانتباه الى الأطفال الصغار. كلما تقدّمنا، كانت خفقات قلبي تزداد سرعة. وكنت أفكر أن مساء يوم الأحد يوجد قليل من السابلة لحسن الحظ، فلانتعرض للخطر عند عبورنا من رصيف إلى رصيف اخر.

وأخيراً، بلغنا المباني الأولى لشارعي.

- «هذا هو!» قلت، وأحسست بأخي يلتصق بي.

أول ماأدهشني أني لم أر لوحات مضاءة، لازرقاً ولاحمراً ولاخضراً. فقد كنت أتصور هذا الشارع يسوده ليل دائم. تابعنا سيرنا. ولاحظت أن كل المحلات مغلقة. حتى عربات الترام الصفر ماكانت تجري. وبدأ إحساس بإحباط مخيف يغزوني. كانت الشمس دافئة تصبغ المنازل والشوارع بلون عسلي حلو. كل شيء كان صافياً. قليل جداً من الناس كانوا يسيرون بخطا بطيئة وأيد فارغة مثلنا تماماً.

وسأل فرناندو!

- «ولماذا «الصين» هنا؟»

وأحسست بالضياع، ولم أعرف ماذا أجيبه. ورأيت مكانتي تتهاوى أمامه. وإذا لم تحدث مصادفة عبقرية فورية فإن أخي لن يصدقني بعد اليوم أبداً.

- «لنذهب الى «الرفاء الياباني». - قلت - «نعم هناك الصين.»

كان لدي قليل من الأمل بأن يقتنع بذلك. لكن فرناندو الذي بدأ يتعلم القراءة، قد يستطيع فكّ حروف لوحة كبيرة معلّقة فوق المحل. ربما زاده ذلك ثقة. من رصيف الى رصيف، كان يتهجّى الكلمات بإتقان. فقلت حينئذ.

-«أترى، ياأحمق، أنت لاتصدّق.»

- «لكن، هذا بشع!» أجاب بتكشيرة.

كـانت الدمـوع توشك أن تطفر من عـيني، إذا لم يحـدث شيء هام وسـريع وفـوري. لكن، مـاذا يمكن أن يحـدث؟ في الشـارع المقفـر، حتى المحلات كـانت أطبقت جفونها على واجهاتها. كانت الحرارة تنتشر ببطء محبب.

- « لاتكن غبياً، فلنقطع الشارع، ثم نرى. » - كنت أشجعه لكسب الوقت أكثر من أي سبب آخر. في تلك اللحظات، شعرت بالحقد على أخي لأن الإخفاق من شيم الصغار، والناس الثانويين.

ظللنا واقفين أمام ستـارة «الرفاء الياباني» المعدنية. كـانت الستـارة سلسلة ماسيّة متقنة من التموّجات تشبه شعر لوكر يثيا خادمتنا الجديدة. كان في وسطها بويب. وفكرت: لعل أخي يتسلّى به، فحرصت على أن أقول له:

- « انظر! ... » - وجعلته يلمسه.

سمعنا جلبة في الداخل وتنحينا من أمام المحل مذعورين.

ورأينا الباب يفتح. خرج منه رجل صغير أعجف، أصفر، عيناه زائغتان؛ ثم أقفل الباب بالمفتاح. كنا نقف منكمشيْن قرب مصباح الشارع، ونحن نمعن النظر فيه. مرّ من أمامنا، وابتسم لنا. وشيعناه بنظرنا الى أن انعطف في الشارع التالي. خيّم علينا الصمت حتى مر بائع / غزل البنات/ فأخرجنا من حلمنا. كان في جيبي بيـزو واحـد. أضف الى ذلك، أخـذت أحس بعطف كـبـيـر على أخي، لأنني استطعت أن أتألق في نظره، فـاشـتـريت قطعـتين وقـدمت إليـه الحلوى الوردية العجيبة. كان منطوياً على نفسه، وشكرني بهزة من رأسه وعدنا الى البيت ببطء. لم يلحظ أحد غيابنا.. لما وصلنا، تناول فرناندو مجلّد: « بينوتشو في الصين». وراح يتهجّى الكلمات بعناية.

ومرت الأعوام؛ ظلّ شارع « الصين» ردحاً طويلاً من الزمن كأنه بطانة ذات لون لامع لمعطف غامق؛ وكنت أعود إليه بالمخيلة أحياناً، لكنني أخذت أنساه شيئاً فشيئاً.

وصرت أشعر بالخوف دون أسباب، خوف من الإخفاق هناك على شكل ما. بعد ذلك، لم يعد بينوتشو يعنيني، أيام كان استاذ الملاكمة يقودنا الى مسرح داخل الشارع. وكان علينا أن نتعلّم الملاكمة، ليس بقسوة فقط وإنما بإتقان. صرنا في سنّ لبسنا فيها (البناطيل) الطويلة حديثاً. وبدأنا ندخّن سجائرنا الأولى. لكن ذلك الجانب من الشارع لم يكن «الصين». وفوق ذلك، صار الشارع كله في طيّ النسيان. والآن صرت أشد اهتماماً بالبحث في قاموس والدي الموسوعي عن الكلمات التي يتهامس بها الكبار في المدرسة وهم يتضاحكون.

انتسبت الى الجامعة بعد ذلك، وابتعتَ نظّارة ذات إطار غامق.

في تلك الأثناء، عدت أتردّد على ذلك الشارع، حين علمت أن عدم العناية بإفراط بطول الشعر علامة على صنف معين. لكنه لم يعد شارعي. لم يعد شارع «الصين» وإن لم يتبدّل فيه شيء. كنت أقصد محلات بيع الكتب العتيقة بحثاً عن مؤلفات تزيّن مكتبتي وفكري. وماكنت أرى المساء يهبط فوق أكوام الفواكه في «الأكشاك» وربما، ما كان لواجهات المحلات وجود في نظري على امتلائها بالنماذج الشمعية. كنت أعنى فقط بالرفوف التي يعلوها الغبار، وتملؤها الكتب؛ أوبظل رجل مشهور من رجال الأدب ينقّب فيها صامتاً منكمشاً. لقد اختفى شارع«الصين». ولا أذكر أني رأيت مرة واحدة، في ذلك الوقت، لوحة: «الرفاء الياباني».

بعدئذ، غادرت البلد لسنوات معدودات. بعد عودتي، سألت أخي، ذات مرة وكان طالباً مستجداً في الجامعة، أين أستطيع الحصول على كتاب يهمني على شكل خاص للغاية، ولم أجده في أي مكان؟ - وأجابني فرناندو باسماً:

- « في الصين... »

لكنني لم أفهم.

سنتليثيث

-«تعلم يا سيد سنتليثيث أننا لو تركنا جميع النزلاء يفعلون ما فعلت لصرنا في الشارع. أجل! أجل. أعرف ما ستقوله لي، وأجد عندك كل الحق. كيف تظن أننا سنرفض لك إذناً في تسمير بعض اللوحات، وأنت تقيم معنا منذ ثلاثة أعوام، وأتصوّر أنك لن تذهب؟»

كان من المستحيل أن تفهم كيف كان (دون إسوبيو) يتكلم هذا الكلام. لأن عضلات فمه الأهتم، المهزومة لم تكن قادرة على إحداث شيء سوى فقاعات ومشروع بكاء. وفكر سنتليثيث أنه لو انقاد لأقوال (برتيتا) التي كانت تبسّط له الأمور وتغريه بألا يستخدم أسناناً صنعية - «مجرد ثقة، يا سنتليثيث» - كانت تقول له. أو «كن مطمئناً، هنا لا توجد فتيات جميلات تطمح إليهن» لأصبح فمه ذاته مثل فم دون إسوبيو خلال فترة وجيزة.

- «لكنّ تعليق خمس وعشرين لوحة، إسراف».

- «ثلاث وعشرون». - صحّح له سنتليث وهو يتلعثم.

خمس وعشرون، ثلاث وعشرون، النتيجة نفسها. ضع نفسك مكاني. كيف سيكون حال ورق الجدران إذا خطر لكل نزيل أن يعلّق خمساً وعشرين لوحة في غرفته؟ أتدرك الأمر؟ بعد ذلك، لن يرغب أحد في استئجار غرفة. أنت تعلم كيف يتعلّق هؤلاء الناس بصغار الأمور، متشدّدين في طلباتهم، وإن كنت أراهن أنهم ما كانوا يعرفون قبل إقامتهم هنا، ما هي «غرفة خاصة».

- «بالطبع؛ لكنها لم تكن مسامير».

- مسامير، دبابيس، وما أدراني، النتيجة نفسها. انظرإلى هذا الجدار. انظر إلى الجدار الآخر. لا أريد أن أفكر في الصخب الذي ستثيره (برتيتا) متى رأت هذا المشهد. وكم سيكلفني توريقها مرة أخرى؟ مبلغ ضخم! عداك عما سيقبضه المورّقون دون خجل.

- «لكن، ما ذنبي إذا كان الورق رديئاً جداً؟ لأنه . . . »

- «قل لي، يا ستتليث: ما دفعك إلى تعليق صور هذه المسوخ القبيحة المنظر على الجدار؟ ومن أي جحيم جئت بها كلها؟ أقول لك بصراحة: أنا أجد فيها شيئاً غريباً، شيئاً من الجنون. لكنك أبعد ما تكون عن الجنون. البارحة، كنا نقول، أنا وبرتيتا لو أن كل النزلاء كانوا في نظافتك وترتيب أمورك، لكانت مهنتنا متعة وليست عذاباً كما هي في الواقع».

- «شكراً جزيلاً. لكن . . . »

- «لا عليك أن تشكرني. أنا أقول الحقيقة خالصة. أنت أكثر من نزيل. أنت خليط، وعشير؛ بل قريب يمكننا القول، لاسيما أنك شخص سهل المعاملة ودون مزاعم كما يفعل البعض. وسأسرّ إليك بشيء، رجلاً لرجل، لا تعدْ إلى مثلها بعد اليوم. أنظر، أنت تعلم برتيتا . . . »

- كيف يخطر لك، ياسيد إسوبيو . . . »

وخفض العجوز صوته:

- «لو كانت اللوحات صور نساء بلباس الحمام أو بتلك الثياب الداخلية الرقيقة المطرّزة بالأسود، كما يظهرن في هذه التقاويم التي نراها اليوم، لكنت فهمتُ الأمر. ماذا تريد أن أقول لها؟ نعم، لكنت فهمته. أنا عجوز. لكنك تعرفني، وتعلم أن روحي شابّة، وأني مرح. الخ. . ولن أقول شيئاً لبرتيتا. لكنّ ماقمت به . . . غريب جداً، ياستتليث، ولن تنكر ذلك. »

- «لا أدري، لكن. . . »

- «وانظرْ كيف جعلت ورق الجدران. . . انظر إلى هذه الحفرة».

- «لكنني، يا سيد إسوبيو، إذا كنت أفكر أن أظل في الغرفة. . . ».

- «هذا شيء آخر. تراب الجدار تساقط فوق الأغطية التي غيّرتها بنفسي، الأسبوع الماضي. أنظر بحق الله! سأستدعي عاملاً، قبل أن تعلم برتيتا بما صنعت، وأطلب إليه حساب الكلفة، وستتكفّل، أنت بدفع النفقات مهما بلغت.

وخرج دون إسوبيو من الغرفة حاملاً قبضةً من الصور برهاناً على سوء فعل نزيله.

تأخر سنتليث عن عمله هذا الصباح.

كان، في العادة، يلبس جوربه وسراويله وقميصه الداخلي وهو جالس على السرير. وإذا كان البرد قارساً، كان يلبس ثيابه كلهاتقريباً دون أن يرفع الغطاء، منتفعاً بالحرارة المتجمّعة في الفراش خلال الليل. بقيت دقيقتان على موعد حلول الدوام في الثامنة والنصف. كان يرتعد على حافّة السرير دون أن يدري ماذا يصنع. كانت الرسوم والصور التي علّقها على الحائط خلال الليلة الفائتة وانتزعها على عجل أثناء خصامه والسيد إسوبيو، مجعّدة، مدعوكة ملقاة بين سر اويل منامته فوق أغطية تحمل رائحة جسمه الحامزة.

لما صعد، تلك الليلة، إلى مخدعه بعد لعبة «الكاناستا»[1]، علم حينئذٍ، أنه سيقوم بما قام به. فالنيّة في أن يقوم بذلك، كانت تراكمت في داخله منذ فترة سابقة؛ لأنه حين مر الأسبوع الماضي من أمام واجهة محلّ لبيع الحدائد، اشترى كيلوغراماً من الدبابيس دون أن يدري ما الدافع إلى ذلك. لقد صعب عليه النوم صعوبة بالغة وهو يشعر أن تلك العيون المستطيلة الصفر، وتلك القوائم اللدنة، والأجسام الرشيقة الراقدة في سبات حارٍ ابنِ مناخات أخر، سجينةٌ، طريحة آخر درج من دروج الصوان. كان يُخيل إليه أنه يسمع صيحاتها تنطلق منه؛ ولم يستطع كبح نفسه، وإن كانت الساعة قاربت الثالثة صباحاً.

---

(١) ضرب من اللعب بالورق - يحاول فيه كل لاعب أن يتخلص مما في يديه أولاً حسب قواعد مقررة. ثم تجمع أرقام الأوراق الباقية في أيدي اللاعبين الآخرين وتحسب نقاطاً عليهم - .

لعل (برتيتا) خمّنت الليلة الفائتة أن نيّته معقودة، بعد أن ينسلّ إلى حجرته، على أن يعمل شيئاً ما، لا تعلمه، فأطالت أمد اللعبة دوراً بعد دور حتى ساعة متأخرة جداً. كان سنتليث نعسان. واحتج أنه مضطرّ إلى الذهاب إلى العمل باكراً في اليوم التالي.

كانت تدفعه رغبة أكبر من النوم إلى الصعود إلى غرفته، كما هو حال كل ليلة حين تبدو برتيتا أقل تشبثاً بمدى اللعب، ليفتح ألبوماته المملوءة بالقصاصات؛ والصور الشخصيّة؛ وينشر كتبه ومحافظه المحشوّة بالصور المطبوعة، ويفضّ ظروفه الغاصّة بالرسوم والمعلومات والمقالات. وإذ كانت برتيتا تعلم أن لعبة الكاناستا المعتادة بعد العشاء، معها ومع دون إسوبيو، ولاعب غائب[1] تعجب السيد سنتليث إعجاباً كبيراً، حتى ما كان يترك اللعب ما دام الورق على الطاولة، فكان من السهل حجزه مهما طالت اللعبة. لم يكونوا يلعبون من أجل المال. وإنما كان لكل منهم جُريب فيه حبوب فاصولياء - حبوب كبيرة ناصعة البياض كالبورسلين - تقوم مقام النقود. كل سبت كانوا يعدّون الحبوب، ومن يخسر كان يدعو الآخرَين إلى السينما لمشاهدة فيلم يختارانه. وكانت الأجربة تُحفظ لديها.

في ختام تلك الليلة، كان سنتليث يلعب وهو على وشك أن يغفو. كان يشعر بثقل الورق بين يديه، وبثقل جفنيه فوق عينيه، حتى لم يعد يرى غير خليط من البستوني والسباتي والكوبا منشورة فوق تلك الطاولة في غرفة المعيشة ذات السقف العالي والمضاءة بمصباح واحد بعيد. في كل دورة، كانت برتيتا تنتشله من سباته وهي تلكزه بمرفقها قائلة:

- «إيه! سنتليث، دورك الآن».

لذّة الكاناستا أنها لعبة سريعة خاصة إذا كانت تلعب بلاعب غائب.

- «يبدو أننا نلعب، اليوم، بلاعبين غائبيْن».

---

(١) لاعب رابع متوهم أو مفترض، يفتح ورقه فينتفع به اللاعبون الثلاثة الآخرون كل حسب حاجته.

علّق دون إسوبيو مطلقاً قهقهة قوية جداً حتى جعل طاقم أسنان ستليث يضطرب داخل الإناء الموضوع على الطاولة المتقلقلة، كأنه سمكة وردية اللون.

ثم قالت برتيتا:

- «ما لك يا أبي! يبدو أنك في سنّ الثامنة ولست في الثمانين. لا تضحك كثيراً».

وأخيراً، انتعش سنتليث قليلاً، لأن دون إسوبيو راح يبتدع قواعد جديدة للعبة لصالحه. في البداية، غضّ الطرف عنها لأنه كان على غاية من النعاس فلا يستطيع النقاش، آملاً بأن كل شيء سيُختتم سريعاً. لكن، لما أكد العجوز وهو غافل بأنه في الكاناستا الملعوبة جيداً، يمكن الحصول على فئة[1] بورقة واحدة و (جوكر) شرط أن تكون الورقة آساً دائماً، أفاق من غفوته وقد أيقظه الشعور بالإهانة فجأة.

- «ليس صحيحاً! -» صاح وهو يمسك بيد العجوز الممتدة ليحصل على فئة.

وغصّت برتيتا بشراب الرمّان الذي كانت تتناوله.

- «أتوحي بأن أبي غشّاش؟»

- «لا يمكن، لا يمكن، لا يمكن!» - كان سنتليث يجأر - «لما كنت أقضي الصيف في منتجع بانيمابيدا، تعرّفت على سيدة من الأرغواي...»

- «حين كنت تقي الصيف في منتجع!» - صاح به العجوز، ويده لا تزال أسيرة يده.

- «اترك والدي، من فضلك! لا تكن مضحكاً». - قالت برتيتا - «أنت تعلم، لا شيء يزعجني كالناس الذين يكذبون. آه...»

- «وتقولين فوق ذلك، إني كاذب!» - احتجّ إسوبيو - «ناوليني جرعة من شراب الرمّان يا ابنتي. فهذه المشاجرة سببّت لي عطشاً لشيء حلو».

- «كلا، لم يبق منه غير شيء قليل».

---

(١) الفئة أو الصف ثلاث ورقات من نوع واحد فما فوق، أو ورقتان من لون واحد وورقة طيبة مسماة.

- «ستنتفخين. شربتِ نصف زجاجة في ليلة واحدة وهذا كثير جداً».

- «لا يمكن الحصول على فئة! لا يمكن. لن تستغفلاني...»

- «من يستغفلك من أجل بضع حبّات؟» - قال دون إسوبيو.

- «أو ليست السينما شيئاً؟ منذ أربعة أسابيع وأنا أدعوكما إليها...»

- «ياه! السينما! السينما!»

- «لعبة اليوم كارثة!» - قالت برتيتا - «لم أشعر بالضجر كما شعرت الآن. حسن! لننه اللعبة. فأنا أشعر بالنعاس. ولنرَ مع مَنْ الأكثرية. ماذا تقول، ياستتليث، أيمكن أم لا يمكن الحصول على فئة بآس وورقة جوكر؟».

- «لا يمكن...»

- «لا يمكن، صوت واحد، أنا أقول: يمكن. صوت. أيمكن أم لا يمكن الحصول على فئة بآس وورقة جوكر؟»

- «لا يمكن!» أجاب العجوز شارد الذهن، ناظراً بشراهة إلى زجاجة الشراب. شعرت برتيتا بالإهانة من اضطراب والداها، لأنه هزّاها، فخلطت بضربة من يدها، جميع الأوراق فوق الطاولة. ثم نهضت وانطلقت لتنام دون أن تودّعهما، تاركة لهما أمر ترتيب أوراق اللعب لحفظها.

لكنها لم تنس أن تحمل أجربة حبوب الفاصولياء.

كان ستتليث يفكر وهو يصعد الدرج إلى غرفته، في أنه لم يبق له غير سويعات أربع ينامها، ثم يستيقظ وينطلق إلى مكتبه. من كوّة زجاجها مهشّم كانت تتساقط قطرات ملحةّ في وعاء. ومن حجرات الممر المظلم كان ينطلق شخير النزلاء الذين ما كان يختلط بهم دون أسوبيو وبرتيتا، اللذان آثراه وحده بأن جعلاه صاحب سرهما.

شكل المفتاح المحدّد البارد في يده، وطقّة المعدن الصغيرة حين أدخله في القفل أيقظاه قليلاً. ارتدى منامته، وتوجّه والمفاتيح في يده إلى الصوان، وفتح الدرج الأخير.

كان يكفيه أن يقلب الظروف فوق سريره، وينفض بعض المحافظ حتى تتحول غرفته إلى شيء آخر. طلعت حيوانات، وانبعثت روائح جديدة قوية هزمت الروائح اليومية المتعبة. ونشأت أغصان ساكنة جاهزة لأن تهتز بعد قفزة الحيوان الوحشية؛ في أعمق أغوار الغابة صرّت الأدغال تحت ثقل القوائم التي لا يسمع لها وقع، وارتعش العشب بفعل انزلاق الأجسام المتحركة. ولوّث تدفّق الحيوانات الهواء؛ وتأثّرت الظلال الخضر والبنفسجية، وبقع الضوء بخطر حضور الجمال، والتهديد الكامن انطلاقاً من اللطف والقوّة.

وابتسم ستنليث، لأن برتيتا تعجز عن فهم أمر كهذا. فلم يعد يأبه بالدوام ولا النوم، ولا المكتب: كان الوقت مدّ تخومه بحنان كريم. فأخرج صوره كلها وبسطها على السرير وعلى الأرض، وفوق الطاولة وعلى الصوان والمزينة وراح يتأمّلها على مهل وبسرور. ثم بحث عن دبابيس. كانت مجموعته أكبر مجموعة في العالم وأجملها؛ هو، وإن لم يعرضها أو يتحدث عنها أبداً، فكانت تكفيه هذه الثقة العميقة بأن يحسّ بالتفوّق والقوّة، والفخر على الآخرين الذين لن يصلوا أبداً إلى تخمين ماذا يخبّىء في الدرج الأخير من الصوان.

منذ سنوات بعيدة، سمح لنفسه، بعد أن قبض أول مرتّب، بترف شراء علبة من الشوكولا مزيّنة بشريط سماوي، ومرسوم على غلافها جرو مدلل لأحد الأنواع الأليفة وهو يلعب بكبّة من الصوف. لم يتخلّ عن العلبة بعد أن أكل حبّات الشوكولا، لأنه كان يجدها جميلة جداً فاحتفظ بها. احتفظ بها أعواماً طوالا. كان يتذكر أحياناً تلك البسمة التي لم تكن بسمة، ذلك الإيحاء بالخطر الكامن في تلك الساق اللعوب ذات المخالب التي تكاد لا تظهر. حينئذ كان يخرج العلبة لينظر إليها.

وكان يخرجها مع مرور الزمن كثيراً إلى أن أحس أن ذلك الأمر أصبح لا يرضيه وأن الدافع الجوهري الذي كان يدفعه إلى الحفاظ عليها تلاشى وغاب غياباً كاملاً تقريباً.
ذات مساء، كان يتصفّح أعداداً قديمة من مجلات في مكتبة رجل عجوز، فاكتشف تحقيقاً بالألوان لا تظهر فيه الأنواع الأليفة فقط، وإنما أنواع أخر مختلفة عنها بشكل عجيب: أنواع فتّاكة تعيش في الغابات. فتذكر علبة الحلوى. لكنه، لما شغف بما كان يراه، نسيها. في هذه الصور المؤثرة التي كان يتأملها بانفعال كبير بث القشعريرة في نقرته، كان الاقتراب من الخطر والقسوة المجرّدة، يزيدان من تأثير الجمال عليه وتمنحان هذا الجمال فعالية شديدة، وتجعلانه يفور ويلتهب ويعمى، حتى رشحت يداه عرقاً، واضطرب جفناه. فاشترى المجلة برغبة كبيرة. ومذ ذاك، أخذ يتردّد على المكتبات بكثرة باحثاً عن شيء يطيل من أمد هذا الإنفعال ويوسعه ويضاعفه. وكان يبتاع كل ما يستطيع العثور عليه. أحياناً، كانت تغريه الكتب المرتفعة الأثمان فيصاب بالإفلاس لعدة أشهر. أكثر من مرة، أرسل إلى الخارج طالباً مقالات بلغات غير مفهومة، لكنه بتقليبها ومداعبتها كان يخيل إليه أنه حصل على شيء، شيء إضافي.

كانت تمر أحياناً، أشهر دون أن يوفّق في العثور على شيء خلال طوافه بالمكتبات. فيعكف في غبش الغرفة، على تأمل الصور المطبوعة على ضوء مصباح سهاري مغطى بظلّة زرقاء؛ ثم يسعى باحثاً عن انفعال غريب بين الرسوم التي كانت تظل هامدة، وقد اختزلت إلى ورق وحبر مطبعة. في داخله أيضاً، كان شيء مايظل هامداً.

اصراره على البحث كان يجعل خياله كسيحاً، لأن الرغبة الملحة في الحصول على شيء كانت تنمو حقاً كمتاهة تعمي وتشل ولا تدع مجالاً لشيء آخر غيرها.

ذات مساء من تلك الأماسي، قالت له برتيتا:

- اسمع، يا ستتليث: أتطعمك هذه الهواية الغريبة جداً؟

كان ذلك بمثابة انتزاع آخر ما بقي بين يديه.

في المكتب، اعتذر بحجة المرض؛ وقصد حديقة الحيوان، وقضى وقتاً طويلاً إلى جانب أقفاص الضواري. كان الذباب يطن حول أشداقها وروثها الكريه. وكانت ذيولها متسخة، وجلودها باهتة كامدة، وأقفاصها صغيرة بشكل مخيّب للأمل. كان الحراس يلقون إليها بقطع اللحم، فكانت تنقض على الأحشاء الدامية، وتقضقض العظام مزمجرة، مطلقة لعاباً حاراً وهي تلتهمها. وولى فراراً منها. هذا عين ما كان يبتغيه. لكن، كلا! ليس كذلك. خلال الفترة التي أعقبت زيارته حديقة الحيوان، أصبح لا يكتفي في بحثه في المكتبات، عن جمال الصور التي تتألق فيها الحيوانات المفترسة ببسمتها المثلثة الشكل ومشيتها الجليلة، كأنها إيحاء مشبع بالموت. بل صار يبحث بظمأ عن مشاهد وحشية تظهر فيها الأشداق التي تقطر مصبوغة بوهج الدم أو مشاهد يرخي فيها الحيوان بكامل ثقله على الضحية المذعورة بوحشية، وكان قلب ستليث يخفق جنباً إلى جنب مع قلب الضحية. فكان يلصق عينيه بصورة المعتدي ليتماثل معه تخلّصاً من الخوف.

الليلة الفائتة، أطلق سراح أجملها، سراح الأمراء بينها والأثيرة لديه؛ وسمّرها فوق رأس سريره إلى جانب المزينة وخزانة الملابس. ومكث فترة طويلة متمدداً على السرير بمرافقة ضوء المصباح المغطّى بالظلّة. لم يكن ينظر إليها فحسب، وإنما كان يحس بها أنها استولت على الحجرة: انطلقت ضوضاء خطرة قد لا تكون سوى وقع قدم في بقعة ماء؛ أو غصن يتقصف، أو آذان مدبّبة تنتصب فجأة. وتدفقت أجسام ذات مشية تامة، ووميض عيون تبرق عند حلول الظلام حتى تحترق، وروائح ونفحات هواء استهلك في رئات قوية، وأشكال واحتكاك وحرارة جلود سابغة فوق أناقة عضلات متينة، تدفقت دعوة نزقة للمشاركة في حياة حارّة متألقة، وللمخاطرة بأن تصبح شدقاً ودماً، ضحيّة ومعتدياً.

لكن ستليث ما لبث أن أغفى.

وما هي إلا نصف ساعة حتى جاء دون إسوبيو يدقّ عليه الباب. ودخل دون انتظار. لما أشعل الضوء شرح له أنه جاء يطلب إليه معروفاً، (ستليث سيسديه إليه

دون شك، نظراً للصداقة الحميمة التي تربط بينهما) بأن ينهض باكراً هذا اليوم؛ لأن سخان الماء في أحد الحمامات معطل. فكان من الملائم أن يستعين بالسخان الآخر قدر المستطاع، وقت تأهب النزلاء للخروج إلى أعمالهم. لكنه لم يستطع إتمام شرحه، لأن عينيه شخصتا، وفمه الأهتم فغر. وبعد لحظة من الدهشة، بدأ مشاجرته مرغماً ستنليث على أن ينزع كلّ ما علّقه على الحائط فوراً.

لما خرج العجوز، أبطأ طويلاً في ارتداء ملابسه. فقد صار لا يبالي بالوصول متأخراً إلى مكتبه هذا اليوم: فهو خلال ستة عشر عاماً من العمل، لم يتخلف عن الدوام أبداً.

بينما كان ينزل على رؤوس أصابع قدميه، تقلّصت معدته لأنه كان على ثقة بأن برتيتا ستسمع دوسه. عاد إلى حجرته وبدّل حذاءه بحذاء آخر ذي نعل مطاطي. ونزل مرة أخرى، بصمت أشد. لا ضوء في غرفتها - أم أن هناك ضوءاً؟- وانزلق بأقصى ما يستطيع من الهدوء من أمام بابها. لكنه سمع الصيحة المنتظرة:

- «ستليثيث!».

وقف وقد غطّى رأسه الأصلع بقبّعة:

- «أتكلمينني، يا برتيتا؟».

- «اسمع، لا تتظاهر بالغباء! تعالَ إلى هنا».

وضع يده على ذقنه وتردّد في أن يدخل ممعناً في النظر إلى ذبابتين ميتتين جافتّين وقعتا منذ أعوام أسيرتين بين الستارة المعدنيّة المغبرة والزجاج. برتيتا كانت لا تزال في السرير جالسة وسط ما كان يبدو بحراً من الوسائد الضخمة وكأنها مركيزة عظيمة. على المنضدة الليلية، كانت علبة «بودرة» مقلوبة، ومشط فيه شعر اشتبك ببعضه، ودبابيس ومشابك. إلى جانبها، كان دون إسوبيو يقف ممسكاً مكنسةً وعاصباً رأسه بخرقة.

- «أيبدو لك قليلاً ما يجب عليك عمله حتى تظل واقفاً كالأبله؟» - صاحت به برتيتا. وخرج العجوز بسرعة ليقوم بأعمال الخادم التي صُرفت الأسبوع الماضي. لما ظلا وحيدين، خفّضت برتيتا عينيها وأجهشت في البكاء. كانت يداها ترتعدان فوق الفراش ذي الأطلس الأزرق. وكان صدرها يعلو ويهبط كمضخة كبيرة. وجالت الدموع على وجنتيها العريضتين اللتين ذرّت (البودرة) فوقهما منذ قليل. فلما رأى ذلك، أدرك أنها تهيأت لانتظاره خاصة وأراد أن يخرج من الغرفة.

- «ستليثيث!» - سمعها مرة أخرى.

أبقته أسير نظرتها التي صارت جافّة الآن.

- «ذلك أني...».

- «أتريد أن تقول لي،.. انظر...».

- «إذا كنت...».

- «... كيف يمكنك فعل ذلك بعد كل ما صنعته من أجلك...».

وأخذت تنشج مرة أخرى، قائلة:

- «أكل هذه المسوخ القذرة!.. أنت تكرهني...».

- «كيف يمكنك القول...».

- «نعم، نعم. أنت تكرهني، على أني تصرفّت إزاءك كأم لما أجريت لك عملية. فكنت أعدّ لك وجباتك الخفيفة. ورافقتك كل الوقت كيلا تضجر وحيداً. وتذكر أني تخيلت لك عن غرفتي الخاصة، وعن سريري ذاته لكي تكون على راحتك وتشفى جيداً. أنت غاية في نكران الجميل».

وأحس بقشعريرة لما تذكر فترة نقاهته التي قضاها في مخدع برتيتا بعد أن أجُريت له عملية قرحة. وراح يتخيّل ذلك الشهر من الراحة في السرير بأجر مدفوع، وبديل له في العمل وكأنما كان في الجنّة ذاتها. حينئذ، كان بإمكانه، لو أتيح

له، أن يتفحّص بهدوء دائم ألبوماته المملوءة بالقصصات والصور. كان بمستطاعه لو أتيح له، أن يقرأ عن عاداتها، وتوزّع أنواعها الجغرافي، وعن جحورها الغريبة. لكن برتيتا جعلته دون أن يستطيع الاعتراض، يسكن الطابق السفلي، في مخدعها ذاته، لتبقيه قريباً منها فكانت تقضي النهار كله إلى جانبه وقد خنقته برعايتها دون أن تتركه وحيداً لحظة واحدة في اليوم؛ مرفّهة عنه راعية له، واجدة في أدنى إشارة منه رغبةً غير موجودة، ومعنى ما كان يريد أن يعطيه لها، وطلباً لشيء ما كان بحاجة إليه. أما، فوقُ، في غرفته ذاتها فكانت العيون تبرق عمياءَ، والأجسام الكاملة تظل طريحة درج في صوان بانتظاره مدة شهر بالتمام. لأن برتيتا لم تسمح له بالعودة إلى تلك الغرفة حتى رضيت تمام الرضا عن تحسّن صحته.

- «لكنني أقدّرك كثيراً، يابرتيتا».

- «تقدرني، آه؟» - سألت وقد كفّت عن النشيج فجأة، بينما راحت تحرك الصور التي جلبها دون إسوبيو

- «آه، نعم، آه؟ وتظن أنك تملك الحق في أن تحطّم البيت كله كما تشاء؟ وهذه المسوخ المقززة... من أجل ذلك كنت تحتبس في غرفتك. الآن، نعم، اكتشفتك؛ بعد اليوم لن تستطيع عمل شيء دون علمي. وهذه الأمور لن تحدث بعد الآن في هذا البيت. ألأننا فقراء، ولأننا ناس محترمون؟ حسبك أن تحطم بيت ناس محترمين! أنت تريد اللقمة جاهزة إلى فمك. نعم، هذا ما تريده، مثلك مثل كل الرجال التي تضحي الحمقاء منا في سبيلهم، وهم يفعلون أشياء عجيبة بعد ذلك دون أن يقولوا لها كلمة... ثم يتخلّون عنها».

- «كيف يخطر ببالك كل ذلك يا برتيتا، إذا كنت أحبك كثيراً..».

- «لا تسخر مني لأنني عانس بائسة وحيدة كُتِب علي أن أتحمّل نزوات أبي الذي لا يطاق، والعاجز حتى عن حمايتي. أنت تعرفه الآن عجوزاً لم يبق له من العمر إلا قليلاً. لكن، ليتك ترى كيف كان من قبل: كان يصنع كل ما يبعث على الألم، كان غافلاً مثل كل الرجال، مثلك أنت. وكان أنانياً ومتبجّحاً وبذيئاً. لكن

هذه المسوخ قذارة خالصة. ولا تأتني بأية حجة. ثم تلعب الكاناستا مع إمراة متظاهراً بالقداسة لتغشّها... وكيف لا، وأنتم تظنون المرأة حمقاء. سأدهن غرفتك مرة أخرى، وأورقّها بأغلى ورق، ولو كلفني مليوناً، فسوف تدفع. سأصعد لأرى هذه القمامة التي خلّفتها، ولو تعرضت بسببك للبرد».

لما رأى ستتليث جسم برتيتا الضخم يندفع بقفزة من بين الأغطية والوسائد، يستره بشكل مخجل قميص داخلي نصف شفاف ابتاعته من إحدى سيدات البنسيون، فتح الباب وأطلق ساقيه للريح. روائح الغرفة المغلقة، والبودرة، وشراب الرمّان الدبق الوردي، ورائحة بدن عذراء عجوز ضعيفة طاردته حتى مكتبه. صعد الطوابق الخمسة راكضاً لأن المصعد كان معطلاً، ودخل دون أن يحيّي أحداً. احتبس في مكتبه طالباً ألا يزعج لأي سبب؛ وألا تطلب منه ملفات حتى يوم الاثنين، لأنه ينبغي له أن يراجعها اليوم، وراح يتمشى بين الخزن المملوءة برزم الأوراق. في إطار النافذة، كانت حمائم تنقر شيئاً، ومن حين لآخر تنظر إليه. جلس إلى مكتبه، ثم وقف مرة أخرى. من نافذته نظر إلى المنور الضيق الذي قسمته الأشعة المنحنية قسمين؛ وإلى السحب التي كانت تندفع في سماء الصباح القاتمة؛ ونظر إلى الصبيّة الشقراء التي كانت تلعب في قاع المنور على بعد خمسة طوابق منه.

انتظر الصباح كله، ولم يخرج للغداء؛ وظل محتبساً فترة المساء أيضاً. نظر مرة بعد أخرى إلى كل شيء: إلى السماء وإلى الخزن وإلى الفتاة التي كانت تلعب مع قطّ محاولاً ألا يفكر في شيء، مبعداً لحظة الوصول إلى البيت فوجد أن ليس لديه الآن شيء يعمله.

- ٣ -

لما خرج ستتليث من المكتب هذا المساء راح يتسكع في الشوارع وحول حديقة الحيوان التي كانت مغلقة أمام الجمهور. جال مرّة بعد أخرى، قرب القضبان؛ وكان يقف فجأة حين يميز الروائح المتعددة الحادة من بعضها البعض؛ روائح كان يعرفها. وكانت تصله همهمات ضعيفة آخذة بالخمود من خلال سجن الأقفاص الليلية. وإذ لم تكن لديه رغبة في رؤية شيء أو سماع شيء، صرف وجهه عنها بينما كان الليل يطبق عليه فجأة. وتابع هيمانه في الشوارع. تناول شطيرة مبهّرة بإفراط. ذلك ما حدا به إلى التفكير في حدوث قرحة أخرى. ثم دخل إحدى دور السينما ونام في مقعده إلى أن صار واثقاً بأنه لن يجد أحداً من نازلي البنسيون مستيقظاً. حينئذ، وحينئذ فقط، قرّر أن يعود.

في الممشى، استقبلته رائحة أوراق محروقة، اختلطت برائحة مقالي يوم الجمعة، لكن، دون أن تستطيع محوها. كان صمت كبير يخيّم على البيت وكأنّ أحداً لم يقطنه أبداً. وصل حجرته وارتدى بكسل، منامته من الفانيلا المخطّطة. وما هي إلا لحظة حتى انكبّ يبحث عن صوره وقصاصاته وألبوماته وظروفه، في الدروج وتحت السرير وفوق الخزانة. لكنه شعر بالبرد، وأخذ يرتعد بعد أن زفر بعض الزفرات بكل هدوء، لأنه كان يعلم، بل كان واثقاً بأن برتيتا قد حطّمت كل شيء قبل وصوله. لقد أحرقتها. خلال النهار، كان يستعرضها في ذهنه ليودّعها. ماذا كان بوسعه أن يعمل أكثر من ذلك؟ كلّ احتجاج وكل مطالبة بحقّ كانت مستحيلة. عند استذكاره الصور، كان يرى نفسه طفلاً صغيراً جداً، وبرتيتا واقفة إلى جانبه تقلّب صفحات الألبوم، وتشرح له الرسوم دون أن تسمح له بلمسها. وجودها بالضرورة إلى جانب فتنة الحيوانات، كان يسحق تلك الصور المثارة، ويجمّد الدم فيها، ويجعلها ترتدّ إلى ذكرى أحوال شرائها وإلى ثقل الكتب، وحجوم الصور اللمّاعة

المختلفة؛ إلى الورق والكرتون وألوان الطباعة. أما ذات الضواري فقد امتنعت عن الحضور، وكأنما أخذ ستتليث يحرق ذهنياً جميع صوره بلهب لا يلبث أن ينطفىء.

صار من عادته أن يستيقظ عند الفجر ليتحاشى برتيتا ودون إسوبيو، وكان يعود مساء ليرتمي منهكاً في سريره، ويستولي عليه نوم ثقيل يخلو من الصور. وكان يتغذى بالشطائر والماني، والكاراميل حتى أصبح هضمه، وهو الضعيف دائماً، عسيراً. في المكتب كان كالعادة، متقناً، نظيفاً، منظماً. لم يلحظ أحد أيّ تبدّل في سلوكه. وإذ كان العمل قليلاً في ذلك الموسم، فكان يجد لديه وقتاً فائضاً لكي يعيش في بطالة، ويجلس قرب النافذة، وينظر إلى السماء، أو يقدّم فتات الخبز إلى الحمائم التي كانت تأتي إلى إطار النافذة، ويتحرّى سطوح المدينة من أحد جوانب المنور المفتوحة؛ ويتلهّى بمراقبة الفتاة الشقراء التي كانت تبدو في قاع المنور أنها مشغولة دائماً بشيء ما: تغسل الثياب، وتسقي شجيرة ذاوية، أو تلعب مع قط، أو تسرح شعرها طويلاً.

كان يمرّ أحياناً، أمام بيوت علّقت فوقها لوحة تقول: «غرف مع بنسيون للإيجار». وكان يدخل ليفحص الغرف المعروضة، متوهّماً أنه بإمكانه أن يبدّل البيت. وكان يتحدث قليلاً إلى ربة النزل التي كان يسحرها الوقار البادي جداً على نزيلها المحتمل. لكنه كان ينتهي دائماً إلى العثور على أحد العيوب، سواء في طاقة الحمّام، أم في الدرج العريض، أم في سقف الغرفة المقشوط. كل ذلك، كان ذريعة لعدم القبول، ومع ذلك، لم يكن يخدع نفسه: فقد كان يعلم أن ذلك لم يكن حجة. وكان يعلم أنه لن يغادر منزل برتيتا أبداً. كان من الصعب للغاية، أن يبدأ بنسج علاقة جديدة مع أي شخص. كانت الفكرة تؤلمه. وكان يتوجّس منها خيفة بوضوح شديد. زد على ذلك، كان في سنّ، من حقه أن يسعى فيها إلى الراحة ولو دفع لقاءها ثمناً غالياً. مهما يكن وضعه سيئاً هنا، فكان يعلم أنه يستطيع كل ليلة، أن يلعب بعض أدوار الكاناستا دون أن يضع طاقم أسنانه؛ وكان مطمئناً إلى أن قمصانه لن ينقص منها زرّ واحد؛ وأن حذاءه سيكون ملمّعاً في الصباح؛ وسيُراعى اضطراب معدته وأذواقه، وبعض حالات هوسه الصغيرة. كل ذلك، كل ذلك، كان جدّ راسخ حتى كانت مأساة لو تخلى عنه.

لكنه لم يتوصل حتى الآن إلى قرار بالعودة إلى البيت في ساعة يحدث فيها لقاء يرغمه على اتخاذ موقف مُحدّد بشأن صوره المفقودة. ما كان يستطيع، في نهاية الأمر، أن ينكر أنه شوّه الحائط. وكان من حقهما أن يطالباه بالتعويض. كلما تذكر كان يحس بشيء ساخن يضطرب في أحشائه... لقد أحرقت الصور. لكنه كان يؤثر أي شيء على الصدام مع برتيتا. ما كان يستطيع أن يمدّ يده، فيطلب منها ما هو له. لكنه لم يكن يستطيع الزعم بأنه لم تكن لديه رغبة في العودة واستئناف قانون وجوده المنظّم. كان يفكر في هذه الأشياء وهو يرقّم الملفات، أو يقف إلى جانب نافذته. قبالتها، توجد نافذة أخرى علّقت عليها لوحة كُتب فيها: «لثيبا إخوان». من عساهم يكونون؟ أما في قاع المنور الذي يبعد خمسة طوابق عنه، فكانت الفتاة تخيط ثياباً. وكان يحزنه ألا يستطيع رؤية وجهها الذي لا بد من أن يكون ذا جمال فاتن حين تلعب مع قطّتها.

كان يعلم أنها قطة، لأنها كانت مُجْرية. وها هو يرى الآن خمسة أو ربما ستة جراء تطوف حول الفتاة التي كانت تقدّم إليها الحليب وتداعبها، ولعل الجمال ساعد القطة الأم على ولادة القطيطات مما جعلها تنسى مخاوفها.

هذا المساء، توجّه مباشرة إلى البيت بعد العمل، وكأن شيئاً لم يحدث، وبنيّته أن يمحو كل مطلب من جهته، ويلغي كل لوم من جهة برتيتا، وهذا يلزمه أن يفترض بأن مكروهاً لم ينشأ بينهما أبداً. زد على ذلك فمن الخير له أن يقوم بذلك الآن، قبل أن يُصاب جهازه الهضمي بأذيّة نهائية، وقبل أن يتشقّق قدماه من التسكع في الشوارع.

دخل البيت صافراً، وتنبّه إلى أن برتيتا عند سماع صفيره، قطعت تدفّق ماء الحمام القوي، فجأة، وخرجت للقائه. صعد الدرج دون أن ينظر إليها، لكنه التفت من المسطبة فرآها تنظر إليه من تحتُ بدهشة، وهي تجفف ذراعيها بمنشفة..

- «آه، برتيتا!» - صاح ستتليث - «مساء الخير.»

وتابع صعوده دون أن يسمع ما قالته.

وما كاد يصل غرفته حتى استلقى على السرير باسماً. وبداله أن تلك الغرفة

الفسيحة سارّةً بشكل شديد، وإن كانت مظلمة قليلاً. كانت تلك حياة جديدة تخلو من التعرّض لخطر الورق المطبوع، ومن الدعوة المعذّبة التي دأب منذ سنوات بعيدة على بسطها يوماً فيوماً، وليلة فليلة دون أن يساهم في شيءإلا بأصداء خافتة. أغفى قليلاً. لكنه ما لبث أن سمع نداء عذباً جداً عند الباب:

- «ستتليث؟»

- «برتيتا؟ادخلي.»

أحس كأنّ يدها أفلتت قبضة الباب فجأة، دون أن تسمع دعوته.

- «كلا، كلا! وشكراً. لا أريد إزعاجك؛ فأنت لديك أشياء ينبغي لك أن تعملها.»

لم يجب ليرى ردّ فعلها. وتابعت بعد لحظات معدوات.

- «... جئت لأقول لك إن الغداء سيكون جاهزاً خلال ربع ساعة لا أكثر.»

ساد صمت. وهي فجوة لم يملأها ستتليث.

- «... طبختُ فرّوجاً بطريقة تعجبك جداً.»

- «أية طريقة؟» - سأل.

وضعت برتيتا يدها القلقة مرة أخرى على قبضة الباب:

- «تلك الطريقة التي قرأنا عنها ذات مرة في مجلة أرجنتينية. أتتذكرها؟ وقد جرّبناها لما طبخت فروجاً يوم عيد مولد أبي.»

- «آه، حسن! لحظة واحدة وأنزل.»

- «رائع، إذاً. لكن، لا تعجل. قلتُ ربع ساعة.»

وبدا له أنها مكثت دقيقة واحدة عند الباب. لكن، كلا! إنما هي ثانية ثم قفلت راجعة عبر الممرّ وهي تدندن بشيء ما. انتظر هنيهة، وغسل وجهه، وصب ماء في أصيص، وأصلح ربطة عنقه ونزل.

كان الفرّوج لذيذ الطعم جداً. وكان عليه أن يقرّ بأن برتيتا ذات يد ماهرة في

الطبخ حين تهتّم بإعداد شيء ما. وبدا أنها أصيبت بالدوار لما كال سنتليث المديح لها:

- «لك يد ملاك، يابرتيتا، نعم، يد ملاك. ما أسعد من يقضي العمر بقربك!».

وتناول ثلاث قطع.

فتح المذياع على برنامج «ليالي إسبانيا» الذي احتفى به دون إسوبيو إحتفاء كبيراً يثير الشبهة، وكأنه يخضع لأمر ما. نظرت إليه ابنته بجفاء. ولما شرع العجوز يقص نكات أندلسية خالية من الطعم، قاطعته مقترحة لعبة كاناستا. رحّبوا جميعاً بالفكرة على أنها رائعة؛ وأخرج ورق اللعب. مباريات هذه الليلة كانت هادئة، مرحة وسريعة. وربح سنتليث بسهولة دون أن تحتج برتيتا أو دون إسوبيو.

- «المس! لقد امتلأ جرابك، يا سنتليث، أليس جميلاً؟»

- «أتحتفظين لي به؟»

- «طبعاً! أنا أُعنى به جداً».

عند نهاية الأسبوع، كان جريب سنتليث مملوءاً. أما الآخران فكانا هزيلين فارغين. كان دون إسوبيو مضطرباً قليلاً، لأنه مضطر إلى دعوتهما إلى السينما هذا الأحد. لذلك قلّ كلامه، ولجأ إلى صفحة رياضة الخيل في الصحيفة إلى أن انتزعتها منه ابنته. واختار سنتليث فيلم: «بركان من العواطف»، إكراماً لبرتيتا التي ظلّت الأسبوع كلّه تتحدّث عن رغبتها في رؤيته، لأن نزيلة البنسيون التي باعتها قميص النايلون المهرب، حكت لها أنه يدور حول إمرأة رائعة تبدو سيئة، لكنها في حقيقتها طيّبة.

كُرِّم سنتليث طيلة هذا الأسبوع حتى أحس بقدرته على أن يطلب من دون إسوبيو أن يعيره منظاره المقرّب الذي كان يستخدمه حين يذهب إلى سباقات الخيل قبل أن تشفيه برتيتا من هذه الآفة التي طالما كلّفتها كثيراً من الدموع. وبيّن أنه استعار المنظار ليتسلّى بالنظر به من نافذة مكتبه في وقت قلّ فيه العمل.

كـان المنظار، في الواقع، لينظر من النافـذة، ويرى بوجـه خـاص الفتـاة التي كانت تلعب في الفناء مع القطط كل النهار، وكل الأيام.

لما وصل مكتبه، قـصـد النافـذة فوراً، وجـهـد كـثـيراً في العـثـور على البؤرة المضبـوطة. كـان القلق يشل يديه، وجعله يفكر أنه يستطيع أن يحصل دائمـاً على فتـحة ذات بؤرة أفـضل. وأخيراً، حصل على مـا يرضيـه. كانت فتاة في السـادسـة عشرة من عـمرها، ذات شعر منسدل، أشقر ناعم. تعلو وجهها مسحة من كآبة تشي بأنهـا لـم تكن تنتمي إلى أحـد أو إلى شيء. وانفعل سنتليث بـالمشـهـد. حـول الفتـاة، كـانت تلعب ثمـانيـة أو تسـعـة قطط بيض، أو ضـاربة إلى الحـمـرة، هي بنات القطة الضخمة التي كانت ترقد في حضنهـا. وأحس بالهلع لما رأى ضخامة القطة. فحص المنور بالمنظار. لكن، ألا يوجد قط آخر كبير جداً يقبع في ظل المعجن؟ وماهي تلك الظلال التي كـانت تتـحرك خلف الشـجـيـرات؟ كلمـا تقـدم المسـاء، كـان يلمح قططاً أخرى تقفز من فوق السور أو أطر النوافذ؛ أو تتدلى من شجرة لـم يلحظها من قبل. وكانت الفتاة تداعبها مبتسمة. ماذا كان يحدث في قاع المنور ليلاً حين تكون المكاتب مغلقة؟ علماً أن القطط تنقلب في الليل، وتصبح غدّارة إذا حصل لها شيء ما يملؤها بالوحـشـيـة حتى إذا جـاء النـهـار همـدت. أتظل الفتـاة ذلك الوقـت محـاطة بالقطط الكسولة؟

كان من السـهل له أن ينسى، خلال فترات الراحة الطويلة في البيت، مخاوفه على الفتـاة الشـقـراء القـاطنة في قاع المنور. لكن، كـانت له حسـابات أخـرى؛ فلربما وجد في هذه الصداقة القائمة من بعيد بينه وبينهـا، عـزاء في حـال انقطعت عنه نعم برتيتا كـما يحدث عادة، وكـما كان يخشى بعد كل رعاية منها. وكان يشعر شعوراً وثيقاً بأنّ هذا ماتعدّه له هذه الأخيرة، حتى قال لها ذات ليلة لما علم أن العشاء سيكون تشاركيكان[1]:

- «لا يعجبني التشاركيكان. أريد فرّوجاً».

- «فروج مرتين في الأسبوع، لا يمكن، ولو كنا من سـمـاسرة البورصة. ماذا تظن نفسك؟» أجابت برتيتا.

---

(١) لحم بقري مطبوخ بأنواع شتى من الخضار.

- «نعم، أريد أن آكل فروجاً».

واستشاطت غضباً.

- «اسـمع! تجـاوزت سـقف المطالب كلهـا، يا سنتليث. كلهـا، لأنك تعلم أننا . .».

أخذ يكتشف شيئاً ما في عينيها اللتين صارتا خلال هذه الأشهر، جريئتين مرة أخرى، على شكل خطر. فلم يرف لها جفن مرة واحدة، وهي تشمّر كمي مرطها؛ ثم صبّت كأساً من شراب الرمّان. فقال بسرعة قبل أن تطفىء نظرتها جرأته:

- «اسمعي، يا برتيتا، قولي لي: ألا تتذكرين بعض الصور واللوحات التي علقتها سابقاً على جدار غرفتي، ثم لم أعثر عليها بعدئذ؟ ألا تعلمين ماذا جرى لها»؟

وكـادت الكأس تسـقط من يدها. وذابت عـيناها القـاسـيتـان لما تحـاشـتـا نظرة سنتليث.

- «آي! بحقّ الله، أتفرك جسمك بصورك؟ لماذا خطر ببالك أن تتحدث عنها الآن، وقد مضى عليها شهران تقريباً؟ ألا يخجلك الاهتمام بلعب طفل صغير؟ حسن! لقد حدثّت أبي بذلك. وإذ بدا لنا أنك ستظل مقيماً في الغرفة . .»

وهزمها بأن قاطعها، قائلاً:

- «إم م - يمكن أن . . .»

وسلّطت عينيها عليه ولم ترفعهما عنه بعد ذلك.

- «. . . وهكذا قررنا أننا لن نتعب أنفسنا بتوريق الجدار، وبذلك لن تدفع شيئاً».

- «بالطبع، أنتما كريمان دائماً».

وانتظر حتى شرعت في إطلاق زفرة تروّح بها عن نفسها فقطعها عليها ملحّاً:

- «لكن، والصور . .».

- «آي! بالله عليك! يا سنتليث، دعك من الحماقات. وما أدراني ما فعل بها أبي! أقول لك إني سلمتّها له. ولا أدري إن كان يبدو لك هذ الفعل سيئاً. لكن، لديّ

واحدة منها ظننت أنها لا تهمك فوضعتها في إطار هذه المرآة الزرقاء التي تخلت عنها نزيلة الغرفة الثامنة لما رحلت. أتريد أن تمر بغرفتي وتراها؟ سأقول لك ما اسم الحيوان القابع بين تلك الأوراق الكبيرة والأزهار النادرة. شاهدت ذات مرة فيلماً..

وخرج ستتليث دون أن يودّعها.

هذا المساء، مكث في المكتب إلى أن انصرف الآخرون جميعاً. كلما تقدّم الليل، كانت الأضواء في الجناح المحاذي، تُطفأ الواحد بعد الآخر حتى اكتسب البناء الإسمنتي إصداءً خاصاً به يشبه إصداء علبة فارغة ضخمة للغاية. هبّت نفحة هواء محملة بايحاءات كثيفة، دخلت من النافذة المفتوحة. كانا وحيدين، هو والفتاة الغافلة وسط القطط على بعد خمسة طوابق منه. وغرقت الظلال في الفناء الضيّق متساقطة كتلة فوق كتلة يضيئها وهج العيون الخضر والذهبية والحمر، وهي تومض. كان ستتليث يلمح بصعوبة أشكالها بمساعدة المنظار المقرّب. كانت عشرات الحيوانات تطوف حول الفتاة التي لم تكن سوى بقعة شاحبة وسط هذه العيون التي تلتهب حين تنظر إليها بشراهة، كان على وشك أن يصرخ بها محذراً وهو منحنٍ فوق النافذة؛ لكن زجاج (لثيبا إخوان) قبالته، أضيء فجأة، وفُتح بصرير؛ واخترقت أصداء ضحكة مبتذلة صمت البناء من جانب إلى جانب. بحث عن قبّعته في الظلام وانصرف.

هذه الليلة، لم يتناول الطعام في البيت. لكنه انطلق في اليوم التالي، من مكتبه مباشرة باحثاً عن برتيتا، وقال لها إنه عثر على مكان آخر للإقامة فيه، ويفكر في ترك الحجرة الشهر القادم. لذلك، تستطيع التصرّف بها منذ ذلك التاريخ.

- «لكن، لماذا يا ستتليث؟ ماذا فعلنا لك؟» - تلعثمت.

-«لاشيء...»

- «إذاً، لا أفهم...».

- «ذلك أن إحدى زميلاتي في العمل، وهي أرملة ضابط، تخلّت لي عن حجرة في شقّتها، لأنه ليس لها أبناء. والشقة جميلة، مشرقة وعصرية. وقد أكون النزيل الوحيد عندها. تصوّري مقدار الراحة فيها، خاصة أن السيدة جذابة جداً، حتى أنها تعزف على الغيتار.»

وقفت لا برتيتا شاحبة وكأن شيئاً يضغط عليها من الداخل ويشحنها حتى انفجرت:

- «أنتم - ناكري الجميل - تذهبون دائماً إلى حيث الشمس أدفأ. اذهب، اذهب إن شئت. وأنا، ماذا يعنيني منك؟ أيها الجاحد بعد كل ما صنعناه من أجلك في هذا البيت. ماذا يعنيني؟ أنت خنزير، مثل كل الرجال الذين لا يعنيهم غير شيء واحد... أنت خنزير، خنزير.»

وإذ كانت برتيتا تردّد هذه الكلمات، أخذت تئن وتبكي بائسة.

وانتصب داخل ستليث جدار منعه من التأثّر. ما كان يبغضها، حتى ما كان يريد بها سوءاً. وما كانت لديه خطط للذهاب إلى بنسيون آخر. لكنه رأى أنّ هذا ما كان يرغب في مشاهدته بأمّ عينيه منذ زمن بعيد. أن يرى برتيتا مُحطّمةً، باكية بسببه دون عزاء... وغادر الغرفة قبل أن تنمو موجات الشفقة لديه فتحطّم الجدار. ما كان يأبه لأي شيء خارج ذاته، لأيّ شيء إطلاقاً. وذهب ليضطجع. تمدّد على السرير دون أن يخلع ثيابه. أحد النزلاء كان يشخر في الغرفة المجاورة. وفي الغرفة المحاذية، استيقظ طفل وقال لأمه إنه يريد أن يبول. بعض السهارى المتأخرين كانوا يدخلون غرفهم على رؤوس أصابع أقدامهم، موقظين ألواح الخشب القديمة الراقدة في أرضية الشقة. تأمّل الجدران التي تجول فيها حيواناته المطيعة ذات ليلة ليست بعيدة، وقبل أن تحطّمها برتيتا. ما كان يأبه لشيء، لأنّ الغابة كانت تنمو في داخله الآن، بصخبها وألوانها، وتدفّق الموت والحياة فيها. لكنه كان يهتمّ بشيء، بشيء واحد. وكان ينبغي له أن يهتمّ به. في قرارة مخيّلته، كما في قاع منور مظلم جداً، أخذت تبرز بقعة شاحبة نمت مذعورة أمام الخطر الذي يحدق بها. هي كانت تظنها

قططاً فحسب، شبيهة بالقط المرسوم على غطاء علبة الحلوى ذات الشريط السماوي. لكن، كلا! يجب عليه أن يهيب بها محذّراً لإنقاذها من أن تُلتهم. لم يستطع النوم، لأنه كان يحس بأن الفتاة تتوسّل إليه، وإليه فقط. كان يتقلّب على السرير مرتدياً ثيابه، دون أن يستطيع إبعاد الحيوانات الخطرة، ثم نهض وأطلق بعض الزفرات لأنه كان يحس بطعم المرارة في فمه، وتأهّب للخروج. هبط السلّم دون أن يبالي بأن توقظ خطاه البنسيون كله، فقد كان مستعجلاً. عند مروره أمام غرفة برتيتا، أُشعل الضوء وسمعها:

- «ستليثيث؟»

توقف دون أن يجيب.

- «ستليث! إلى أين ذاهب هذه الساعة، بحق الله؟»

وبعد لحظات من الصمت أجاب:

- «يجب عليّ أن أخرج.»

ولما أغلقت الباب، سُمعت أنّة كأنة حيوان، تشق الليل:

- «يا الله!»

في الخارج، كان الهواء الصقيعي يحدّد معالم شكله، ويعزله عزلاً كاملاً عن كل الأشياء الأخرى. خلع قبعتّه، على الرغم من البرد الهادىء الخالي من الريح والرطوبة؛ وأحس بالهواء يداعب نقرته وصلعته وجبهته وعنقه ويبعده عن كل انشغال ويخلّصه منه، ما عدا انشغاله بالفتاة التي كانت على وشك أن تُلتهم. صعد الطوابق الخمسة راكضاً. فتح أبواباً، ثم أبواباً دون أن يدري كيف حتى بلغ مكتبه؛ واقترب في الظلمة، من النافذة وفتحها على مصراعيها. كانت نافذة ضخمة أزالت من فوق رأسه ظلمة سماء باهتة، فيها قمر حار أحمر ذو حوافّ غير منتظمة كأنه دمّلة يبدو أنها توشك أن تنفجر فوق رؤوس الأشجار العملاقة. وخنق صرخة من الرعب. كان الفناء بركة دبقة من الضواري التي كانت تنظر إليها بعيونها الصفر

والحمر والذهبية والخضر. وسدّ أذنيه بيديه كيلا تمزق موجة الزماجر غشاءها الطبلي. أين هي الفتاة؟ أين جسمها الغارق في هذه الحرارة، في هذا الهواء الملوّث؟ كان فيض، وفيض من النمور يقفز إلى الفناء من فوق السور. وكانت الفهود المكسيكية والبوما الجائعة تشق سجف الظلمة بين الأوراق البنفسجية؛ والأونسا تفتك بالوشق. والفهود تتسلّق الأشجار التي كانت تصل، تصل تقريباً حتى النافذة التي كان يتحرّى منها الفناء بحثاً عن الفتاة التي لم يكن يراها. كل شيء كان يصرّ ويضجّ ويموج بحشرات جُنّت من الخطر الكامن في هواء الغابة المسموم العكر. وأراد جاغوار أن يعضّ يد سنتليث انطلاقاً من غصن قريب جداً، لكنه استولى على المنظار فقط. وزمجرت أمام وجهه فهدة غاضبة ذات عينين بلون الجمر متعددتي الحدقات. لم يكن يساوره خوف، بل كان يشعر بضرورة، بأمر يشبه العثور على جدارته بنصر ممكن. كان القرار الأهم والأكثر طموحاً في حياته، لكنه الوحيد لكونه الأصعب. أخذت الأغصان تنفرج في قاع المنور. وحبس سنتليث أنفاسه: إنها الفتاة. نعم، هي كانت تطلب إليه أن يخلصها من هذا الفوران المخيف. حيوانات لا يعرف اسمها كانت تزحف مستلّقة الأغصان المرتجفة؛ والطيور ذات الريش البديع تنتفض بين السراخس المخيفة. بيديه المذعورتين كان يذبّ عن وجهه الحشرات التي ألهبتها الرطوبة. وتحوّل الليل كله إلى عيون متوهّجة، سواءً، فوقُ، في الفضاء خلال الأغصان العملاقة التي كانت تخنقه، أم تحتُ، وسط عاصفة الضواري التي كانت تقتل بعضها بعضاً. هواء الليل الثقيل، الذي يضيئه بصعوبة قمر معتم - أم هو شمس مجهولة؟ - كان يهبّ محملاً بعواء مثقل كثيف. وكانت الفتاة هناك بانتظاره. ربما كانت تئنّ. ما كان بمستطاعه أن يسمع صوتها وسط الصياح والهدير والصراخ. لكن، كان من واجبه أن ينقذها. وتسلّق إطار النافذة. نعم، كانت الفتاة تحتُ. وبصرخة أفزع أحد الوحوش الجاثم على غصن قريب. وقفز قفزة وحشية لينزل لعندها ويتداركها.

الشارلستون

أفكر أحياناً، في أن الحياة قد تكون حزينة حتى التخمة، إذا لم يكن للمرء أصدقاء يتسلى معهم، أو يتناولون معاً بعض الجرعات من الخمر بين حين وآخر.

لكن الحياة تجري فيها أشياء غريبة جداً، لا يستطيع أحد أن يفهمها. منذ فترة بسيطة، قضيت أسبوعين، وقد فقدت الرغبة في أن ألتقي بصديقي خايمه وميمو. وهما أيضاً، لم يرغبا في أن يلتقيا بي ولا ببعضهما البعض. لاأدري لماذا، لأنها أمور ليس لها تفسير. عشت هذه الأيام بمرارة شديدة. ولم تكن لدي رغبة حتى في فتح المذياع للاستماع إلى بطولة أمريكا الجنوبية بكرة القدم. وحين كان يتصاعد صياح إخوتي من الغرفة المجاورة كلما سجّل هدف، ما كنت أشعر بأي حماس، لا لشيء إلا لأني لست مع ميمو وخايمه، وبالتالي لا نستطيع الاحتفاء ببعض أقداح من الخمر الأحمر.

انقضت ثلاثة عشر يوماً دون أن نلتقي، أي ما يقرب من أسبوعين. الطريف، أننا لم نتشاجر، ولم نتخاصم، ولم نتفق أيضاً على ألا نرى بعضنا. لم تكن لدينا جميعاً، رغبة في أن نلتقي ولا شيء آخر، كان يبدو أن في الأمر سحراً، لأننا نقطن حارة واحدة، وكنا نلتقي دائماً دون أن نبحث عن بعضنا. لكن، خلال هذه الأيام، كان يبدو أن الأرض انشقت وابتلعتنا. ضغطة واحدة على جرس بيت أي فرد منا، كانت كافية حتى نلتقي ونحطم هذا الصمت الذي كان يبعدنا عن بعضنا، لكن هذا كان في غاية الغرابة. إنا وإن كان بودنا أن نلتقي - (كنت أفكر بصديقي كل الوقت، حتى أثناء العمل) - فلم نبحث عن بعضنا وكأننا نعاني خوفاً.. أو تقززاً. لا بأس!

كنا – كما قلت – أنا وخايمه وميمو أصدقاء حميمين. إننا نعرف بعضنا مذ كنا صغاراً، لأننا عشنا دائماً في الحارة نفسها. لكنني أعرف أشخاصاً كثيرين مذ كنت صغيراً، ولم يصبحوا بذلك أصدقائي، على الأقل، أصدقاء كخايمه وميمو. لأنني مقتنع بأن الصداقة شيء أكثر جداً، أكثر . . . ماذا أقول؟ –أكثر روحانية من مجرد الوقوف في الشارع للتحدث إلى أحد المعارف. أعتقد مثلاً، بضرورة وجود ميول مشتركة، كالميل إلى كرة القدم في حالتنا نحن الأصدقاء الثلاثة.

لا أدري إنْ فكر أحد بمنافع كرة القدم لتكوين الأصدقاء – يذهب المرء إلى المباريات مع آخرين. يشتري مجلات يظهر فيها اللاعبون؛ ويناقش ويكون لديه موضوع يكفيه أسابيع – . الكرة في الواقع، تملأ الحياة. حين أعرف شخصاً ما لا تعنيه المباريات، ولا يعرف اللاعبين، ولا يعلم شيئاً عن أحوال الفرق، أعدّه نصف ميت أو شيئاً شبيهاً بذلك، كأنه من سكان المرّيخ؛ إنسان مختلف لا يتكلم اللغة ذاتها، ولا ينفعل بالأشياء نفسها، وإذا كان أحد قادراً على ألا ينفعل بمباريات كرة القدم فهو غير قادر على الانفعال بمرأى إمرأة عارية. على ذكر النساء، سأقول إن ميمو لا يفكر إلا بهن؛ ربما لأنه ذو حظّ طيب، بالطبع، لا يمكن الإنكار أنه رجل حسن المظهر، رشيق، أبيض اللون، شعره أسود مدهون جيداً؛ أنيق دائماً لأن أخاه يعمل في ورشة خياطة مترفة. وأنا أرى، فوق ذلك، أن مهنته لها علاقة بنجاحه، فهو بائع أدوات تجميل «أونديتا»، وشامبو، وماء كولونيا، وصابون معطر «كريمات»، وجميع الروائح التي تولع بها النساء. كل ذلك كان يجذبهن إليه. وهو الذي جرّنا، أنا وخايمه، إلى حفلات الرقص التي تقام في المدارس والنوادي الرياضية حيث الأضواء الملوّنة، والآنسات اللاتي ترافقهن أمهاتهن أو إحدى الخالات، أو الإخوة. أنا وخايمه لم نكن من المعجبين بالرقص؛ وكنا نذهب إليه لمرافقة ميمو فحسب. وكيف يعجبنا؟ لا أنكر إمكانية إقامة صداقة مع شابات جذابات للغاية . . . لكن، ماذا بعد؟ لا شيء. كثير من الضوضاء ولا طحن.

أنا أقول: الصداقة تقتصر على الرجال. وما خلا ذلك، نفضّل كلانا أن نسعى من حين لآخر إلى أحد الشوارع. هذا أسهل لنا. نصل ونطلب كأساً من الكوكتيل، ونرتب أمرنا مع امرأة من النساء، ونحصل على مرادنا ولا مشاكل بعد ذلك، ويظل أحدنا في غاية الإنشراح. وأخيراً، أظن هذه العملية أقل كلفة. للحصول على فتاة محترمة تحتاج إلى دعوات متكررة لحضور أفلام؛ ولتناول شيء ما في المساء وللنزهة أيام الأحد؛ وللرقص يوم السبت فتخرب جيبك دون أن تدري. لا يعني ذلك أن أياً من الثلاثة كان يعاني من الجهة المالية. لم نكن أثرياء، وكل منا كان يقطن مع أسرته، وعليه أن يساهم بنفقات البيت. لكن، ما كان يحق لنا أن نشكو. فكل منا، كان له عمل طيّب ومضمون. ميمو - كما قلت - كان بائع مواد تجميلية. قطاعه، وإن كان أسوأ القطاعات، فسوف يسند إليه، فيما أحسب، قطاع أفضل. خايمه كان موظفاً في وزارة الأشغال العامة، وكل الناس تعلم أنه منصب من خير المناصب، لأن فيه كثيراً من الدخل الخارجي الذي يبشر بمستقبل جيد وإن يكن المرتب غير مغرٍ. أنا كنت أقلهم شأناً من الناحية المالية، إذ لم يكن مضى على عودتي من المعهد التربوي غير فترة بسيطة، فكنت أعمل بداوم غير كامل في المدرستين اللتين أعلّم فيهما. ومع ذلك، كان خايمه وميمو يحترمانني لأنني كنت أرفع ثقافة منهما.

كان خايمه أقل الثلاثة أناقة. لكن، يخطر لي أحياناً، أنه كان يُعني بأناقته أكثر مما يبدو عليه في الواقع. كان ضئيل الجسم، خالص السواد؛ شعره غزا جبهته. أما شارباه فلم يكونا غزيرين جداً، لكنه كان يُعنى بهما كإنسان عينيه. الخلاصة كان نسخة من إخوته التسع، وإذْكان معجباً بميمو أيما إعجاب، فكان يتزين بمثل زينته، وكانت ثيابه على ضآلتها، حسنة الترتيب، حتى كانت تبعث على الضحك رؤيته جاداً غاية الجد، رافعاً رأسه، واضعاً يديه في جيبيه. أنا كنت أشقر اللون مع ميل إلى السمنة فقد كنت حفيد يوغسلاف من جهة الأم. وكنا أتراباً في الثالثة والعشرين من العمر.

لكن ما كان يجمعنا، نحن الثلاثة، الولع بالخمر. وإياكم أن تظنوا أننا من المدمنين الفاسدين. فالفاسدون يشربون فرادى وليسوا مرحين. أما نحن، فما كنا

نعلم، إن كنا نسر بالحديث لنشرب، أم نشرب لكي «ندردش». لكننا مذ كنا في الخامسة عشرة من أعمارنا، أي حين كانت جيوبنا فارغة ولا نملك من المال لمشاهدة فيلم سينمائي، كنا ندخر لشراء ليتر من الخمر ونشربه مختبئين في زاوية من هذه الزاويا. ثم أخذنا نقصد الحانات في هذه الأنحاء نحن الثلاثة معاً دائماً.

لا شيء يمكن مقارنته بالخمر مهما قيل عكس هذا الكلام. في المقام الأول، هو لا يضر بالصحة ضرر المخدرات القوية، لم نكن نعجب هذا الإعجاب به، للطلاقة والسعادة اللتين يبعثهما في النفس، حتى يحس المرء أنه ربح جائزة المليون، أو أن إحدى نجوم السينما مغرمة به. . وإنما من أجل. . . كيف يمكن قوله؟. . حسن! لأن الحياة، برأينا، تدور كلها حول الخمر؛ كل ما هو جدير بالاهتمام: الضحك، والأصدقاء والنساء والطعام الطيب وكرة القدم، كلها تصبح أفضل إذا مازجها الخمر الأحمر. في الواقع، كنا نتحدث عن الخمر تقريباً أكثر مما نتحدث عن النساء أو كرة القدم. نتحدث عن الحماقات التي يقوم بها أحدنا إذا أسرف في الشرب؛ أو عن النشوة التي تحدث له. كل سكرة فيها شيء مسلّ يمكن للمرء أن يتذكره فيما بعد. وكلما ذكره، ضحك مرة أخرى من مواقف لا تتكرر كثيراً.

- . . . لكنها لم تكن خيراً من تلك الليترات التي شربناها في مقصف يقع على طريق. . . أين يقع؟

- أنت تقصد لما ذهبنا إلى محل الثامن عشر؟

- كلا! محل الثامن عشر ذهبنا إليه مع مجموعة كبيرة هو على طريق تشينشولين. أنا أقصد، لما ركبنا الميكرو وانطلقنا في الصباح الباكر. كانت الحرارة مرهقة ومعدنا فارغة، وصعد الخمر بسرعة إلى رؤوسنا. وأردنا أن نعبث بابنة صاحب الحانة.

- «لا أتذكرها.» - قال خايمه متظاهراً بالبراءة - «كيف كانت»؟

- كانت صبيّة بشعة جداً. وأسوأ من ذلك أنها كانت تقطر عرقاً. لكنها ما كانت تعرف اسمك. وذهبتَ بها بين الأعشاب. ثم جاء أخوها للغداء، وهو جندي في فرقة مكافحة التهريب. وشعرنا بخوف كبير، لأنه أخذ يسأل عنها. وهكذا دعوناه إلى مائدتنا، ثم أخذنا نساقيه كأساً وراء كأس للتغطية عليك. . . ولما عدتما كانت ثيابكما ملطخة بتراب المرعى وعشبه ولم يتنبّه إلى شيء.

ضحكنا برهة من الزمن، ونحن نتذكر كل ذلك. ثم كيف حاولنا بعدئذ أن نتظاهر بالجهل، لكن ابنة صاحب الحانة، وقد قرصها تمرّغها بين الأعشاب عرفت مقصدنا. وفي وقت لاحق تذكر أحدنا:

- لكن أسوأ لحظة عرفتها في حياة ميمو كانت حين أردنا خطف لوسي من بيت هايده. كنا في غاية الأناقة، وكان ذلك بمناسبة عيد ميلادك يا ميمو. كانت عمتك أهدت إليك إجّانة من خمر الذرة الحلو. وشربناه في جلسة واحدة. وبعد الطعام ذهبنا للاحتفال في بيت هايده، فلم يُسمح لنا بالدخول لأن البيت كان غاصاً بالزبن. غير أننا لسنا قصيري الهمة ولا كسالى، فدخلنا من إحدى النوافذ. ولما رأتنا لوسي. . .»

نعم، هكذا هو الأمر. كؤوس خمرك الأحمر على طاولة البار؛ وشطائر اللحم الساخن كيلا نشرب على معد فارغة؛ سجائرك اللذيذة، واستعداد الأصدقاء لقضاء لحظة ممتعة. . . ثم نتكلم، ونتكلم ونشرب ونشرب، فلا نحس بمضي الساعات حتى تدق الساعة الثانية، والثالثة، الرابعة صباحاً.

كما قلت، لا أدري كيف استطعت أن أقضي هذين الأسبوعين دون أن أذوق جرعة، وكيف استطعت الصمود دون أن ألتقي بخايمه وميمو، وكأنني أخشى رؤيتهما، وكأن الخمر صار له طعم السماد في الفم، أو كأنه سيلصق بحلقي. لكن الأظرف من كل شيء هو أنني ما فتئت كل هذه الأيام، أتذكر رجلاً بعينه رأيناه آخر ليلة خرجنا فيها معاً. وكلما تذكرته أثار فيّ خوفاً، أو تقززاً لا أعرف كيف أشرحه. . .

معظم الأحيان، كنا نخرج ثلاثتنا معاً بعد العشاء لمشاهدة أحد الأفلام. تلك الليلة، كانت جيوبنا مملوءة، فاخترنا فيلماً يعرض حديثاً في مركز المدينة، فيه شيء خاص مميز. فبدلاً من أن تكون بطلة الفيلم ممثلة واحدة رئيسة فقط، كانت البطلات ثلاثاً. لاورين باكال، مارلين مونرو، وجين روسل. الفنانات الثلاث اللاتي كنّ يسترن عريهن بما يشبه وريقات العنب هنا، ووريقات هناك تزينها خيطان تسكر المرء، كن يرقصن ذلك الرقص المجنون المسمى بالشارلستون. بعد العرض، سلكنا شارع آلاميدا نحو بيوتنا، معرجين على هذه الحانة أو تلك، متحدّثين، ومتحدّثين؛ إذ لم تكن تنقصنا مواضيع نتحدث عنها. تلك الليلة، تحدثنا عن الفيلم الذي شاهدناه منذ قليل، وقد تقاسمنا الممثلات فيما بيننا. وبعد نقاش طويل اتفقنا: ميمو الذي يتشبّه بالارستقراطيين ويقول إن العجائز هن الأفضل لأنهن أكثر عطفاً، أختار لنفسه لاووين باكال. أنا كنت أنزع إلى اللون الأشقر، فرضيت بمارلين مونرو. أما خايمه الذي كان كان يفضل دائماً الكمية على الكيفية، ربما لأنه صغير الحجم، فاختار جين روسل. لقد سرّتنا القسمة سروراً كبيراً. فهي وإن كلّفنا الاتفاق عليها جهداً مضنياً، لم تؤد بناً إلى الشقاق كما يحدث أحياناً كلما تعرضنا لمسألة النساء.

كل لحظة كان ميمو يردد:

- أوآه! كم أبذل لكي تعلمني لاورين رقصة الشارلستون!

دخلنا إحدى الحانات، وتناولنا زجاجة وخرجنا. تجاوزنا بعض الأبنية ثم دخلنا حانة أخرى، وثالثة ورابعة حتى وصلنا أعلى جادة إسبانيا. وإذا كان لا يستطيع أحد أن يقول عنا سكارى، فمن الخير ألا نتحدث عن درجة الكحول التي تشبّعنا بها. على كل حال، كانت من تلك السكرات العذبة الحلوة التي يقترفها المرء مرة واحدة في الأسبوع.

ميمو الأحمق التصق بحلقة لحن الشارلستون، فقد كان يدندن به بين جملة وأخرى. لكنه كان رديء السماع، فلا يستطيع أن يغني منه غير النذر اليسير. وأقل

منه كانت قدرته على الرقص ولو حاول ذلك. أما أنا وخايمه فقد دبّ فينا النعاس، لأن الوقت كان تأخر كثيراً. لكننا انقدنا لميمو المفتون بالشارلستون المشهور، وجَعَلَنا ندخل آخر حانة أبوابها كانت مفتوحة تلك الليلة.

- «بعد ذلك، سأوصلكما بتاكسي على نفقتي». - قال وهو يفتح الباب كيما ندخل.

وهكذا أقنعنا فدخلنا بخطا ثابتة. كانت حانة مثل كل الحانات المنتشرة في الأحياء. كانت واسعة، طولها يمتد باتجاه القاع؛ على أحد الجانبين، كان الكونتوار مع آلة القهوة الإكسبريس، وصنبور لصب البيرة البيضاء والسوداء، ثم حوالي عشر (طاولات) وكراسي مدهونة بلونٍ أخضر، قواعدها من القش. يحتل وسط المحل جهاز إسطوانات مغمور بالأنوار والزجاج الملوّن. هو أحد تلك الأجهزة التي لا بد من إلقاء بطاقة فيه والضغط على زرّ حتى يشرع في العزف. كان الوقت متأخراً جداً، ولم يبق في الحانة سوى رجلين أو ثلاثة. جلسنا وطلبنا زجاجة خمر منزلي. الساقي الذي رفع الطلب إلى معلمه، كان يبدو أنه سيسقط أرضاً من ألم في قدميه. قدم لنا ثلاثة أقداح من خمر شديد الحمرة يعرف من بعيد بمذاقه القابض. وسلم ثلاث بطاقات من أجل الاستماع إلى الموسيقى لرجل سمين كان يجلس قرب الكونتوار إلى طاولة تلتصق بجهاز الأسطوانات. كان سميناً ذا وجه ضاحك يتصل بالجذع باسطوانة من الشحم، وكان السكر بادياً عليه.

كان الوقت شتاءً، وما كنا نجرؤ على خلع معاطفنا خشية البرد. أما هو فكان ينضح عرقاً ويفتح ياقة قميصه، وينفخ كأنما يجهد لكي يتنفس. وتحققت من أن قسماته المختبئة وراء سمنة وجهه كانت ناعمة: فالأنف، والفم والحاجبان كانت كلها جيدة التناسق، وتدل على أنه ولد ليكون نحيلاً. لكنه بقضائه حياته منعماً بين المأكل والمشرب والضحك، تحول إلى هذه الكتلة من الشحم مكتسباً فوق ذلك، تلك البسمة التي لا يمكن أن يتخلى عنها.

بدا لنا فجأة أن الرجل السمين ينهار فوق طاولته، لكننا ما أدركنا أنه كان ينحني ليمد ذراعه ويضع بطاقة في شق الجهاز. كان يضع رزمة من البطاقات قرب زجاجته. أخذنا نتبادل النظرات مسرورين، لأن الموسيقى تعجبنا خاصة إذا كانت بالمجان. كانت نفوسنا مهيأة للاستماع، فطلبنا زجاجة أخرى من الخمر المنزلي القارص، لكنه قادر على طرد البرد. صب الرجل السمين لنفسه كأساً سكبها فوق ثيابه؛ ثم صب كأساً أخرى فدلقها لأن يده كانت ترتعد.

نظف الخمر المسفوح براحة يده. ونظف يداً بأخرى، ثم نظف يديه كلتيهما ببنطاله حتى صار هزأه. كان الرجل الصغير مخموراً للغاية!

سقطت الإسطوانة. ووضع الإبرة وانطلقت الألحان الأولى.

- «شارلستون!» - صاح ميمو فوراً وقد صُعق لما تعرّف على اللحن. ونظر إلى الرجل السمين وكأنه يهنئه على حسن اختياره.

نظرنا إليه ثلاثتنا وقد بُهرنا من الدهشة.

كان السمين يتأرجح من جانب إلى آخر بجسمه الضخم وهو جالس على كرسي من القش، وعيناه الصغيرتان تبرقان كأنهما تمعنان النظر في نقطة كانت تبدو أنها تطفو أمام أنفه، ملاحقاً الإيقاع الراقص قائلاً، وهو يتمايل:

- لنرقص الشارلستون! الشارلستون! الشارلستون!

تبادلنا النظرات وأزحنا الكراسي لنرى المشهد أمامنا. بدا أن ذلك أمده بطاقة جديدة. لأنه كان زلزالاً حقيقياً جالساً على كرسي القش البائس، وهو يحرك جسمه كله، وكذلك وجهه المحتقن ذا العينين المغمضتين تقريباً، ويديه الصغيرتين ذاتا الأصابع القصيرة المدببّة كأصابع القدّيسين المصنوعة من الجص.

- لنرقص الشارلستون! الشارلستون! الشارلستون!

كـان حـمـاس الرجل الصـغـيـر كـبـيـراً حـتى أخـذنا نؤدي الإيقـاع بالأقـدام وبالتـصـفـيق. المكان كله كـان يبـدو في حـالـة حـركـة، حـتى القـوارير المصـفـوفـة وراء الكونتـوار والأقـداح المغسـولة حـديثـاً، كـانت ترن عند اهتزازها بتأثير اندفاع الرجل السمين الذي كان يتحرك كأن به مساً.

- «تشارلستون! تشارلستون! تشارلستون!» - أخذنا نغني أيضاً.

كـانت الطاولات والكراسي وأضـواء النيـون المرتعـشـة كلهـا، تبـدو أنهـا تقلّد الرجل السمين المجنون في رقصه وهو جالس. كان وجهه يبدو كحبة بندورة حمراء. وجعل التعرق جبهته وعنقه يبرقان.

توقـفت الموسيقى. أخرج منديلاً من جيبه وجفّف وجهه بسرعـة كأنه غـير مستعد لتضييع الوقت. وبعد أن ألقى بكأس مترعة جيداً في حلقه، قال لنا بصوت متقطع من التعب:

- أأعجبكم الشارلستون؟ هذه موسيقى بحق! ليتكم رأيتموني أرقصها لما كنت نحيلاً! خبطة رِجْل هنا... وخبطة هناك... واحد، اثنان، ثلاثة، تا، تا، تا، تاه، تاه، تاه...

انحنى فوق الجهاز وألقى فيه بطاقة أخرى، وتصاعدت موسيقى تشارلستون من جديد؛ اقترب الرجلان الآخران الحاضران من طاولة السمين، كل منهما يحمل كـأساً بيـده ويؤدي الإيقاع عليها باليد الأخرى، لم يكن يبدو عليهما السرور. لكن، ما دام هو المشـهـد الوحـيـد الذي يجري أمـامـهـمـا، فلم يجدا مناصـاً من الفرجة عليه والمشاركة في جـانب منه رغم البرد والنعـاس. أرخى السـاقي ستـارة البـاب المعدنية، وانضم ومـعلّمُه الذي وضع النقـود في الصندوق، إلى الفـرقـة الملتفـةّ حـول الرجل السمين الذي راح الآن يتحرك بسرعة متصاعدة. وكان يرقص بيديه، بجسمه كله، بقدميه، بوجهه. وإذ كان يفعل ذلك، أشار إلى السـاقي أن يبدل الزجاجة الفارغة

بأخرى ملآنة. أطاعه الصبي، وصب له كأساً رفعها السمين وهو يترنح ساكباً نصفها. وسطعت رائحة الخمر.

نهض ميمو ودنا منه قائلاً له:

- اسمع، يا سيد: لماذا لا تعلّمني رقص الشارلستون الذي أرغب كثيراً في تعلمه؟

هز السمين رأسه بالنفي دون أن يوقف الإيقاع الجامح. ولما توقفت الإسطوانة، وضع بطاقة في الجهاز، وقال بعد أن رفع كأساً مترعة:

- كلا!... الرقص محظور عليّ لأني مريض.

ومع ذلك، لما بدأت موسيقى الشارلستون مرة أخرى، لم يستطع أن يقاوم الإغراء وكأنه مدمن. كان أسير واقع أقوى من إرادته، فنهض مترنحاً. كان يبدو بعينيه المغمضتين تقريباً كأنه في حالة نشوة. أحاط ميمو بذراعه الثقيلة ليعلمه الرقص. وانقاد هذا الأخير له، لكن السمين ما لبث أن تخلّى عنه بعد خطوتين، وراح يرقص الشارلستون وحيداً بين الكراسي والطاولات التي سحبناها لإفساح مجال أكبر أمامه. كان خفيف الحركة، ويرقص برشاقة كبيرة وبإتقان فائق ملاحقاً كل تثنيات الإيقاع حتى فغرنا أفواهنا إعجاباً. كانت تبدو معجزة أن تستطيع هاتان القدمان اللتان تتقاطعان، وتدقّان الكعب بالكعب، ثم تتقاطعان مرة أخرى، ثم تنفرجان بخفةّ كبيرة، حَمْلَ هذه الكتلة الضخمة المتحركة. أخذنا جميعاً نصفّق لتشجيعه وقد سرت فينا عدوى الإيقاع أيضاً. حتى خاتمة الإسطوانة لم يكن يبدو على الرجل السمين أنه يُلقي بالاً إلى الموسيقى، ولا إلى الإيقاع كأنه آلة مشوّشة، تستغني عن كل القوانين، فأخذ يرقص بشكل جامح، عاصف، متنقلاً، متحركاً كأنه مجنون لا ضابط له. توقفت الإسطوانة.

في تلك اللحظة سقط الرجل السمين أرضاً.

- «صار زقّاً من الخمر!» - قال ميمو هامساً كأنه خائف.

لم يكن في الأمر شيء يبعث على الضحك.

في الواقع، كان السمين قد سقط أرضاً كأنه زق. لكننا أدركنا فوراً، أنه لم يسقط بين قوائم الكراسي والطاولات الخضر، كما يسقط السكارى عادة. كان السمين مريضاً، مريضاً مرضاً خطيراً، وكان يشكو كثيراً ويتلوّى من الألم. وفجأة تقيأ سائلاً أسود غامقاً، لا أدري إن كان خمراً أم دما لأنني لم أشأ النظر إليه. ثم بدا أن قواه قد تلاشت، وهمدت حركته، لكنه كان أقرب إلى الموت.

حاولنا إنعاشه بينما كان يئن ويتلوى كالطفل، لكنني تنبّهت إلى أن شيئاً ما كان قد تحطم داخل هذا الجسم الضخم، وجعله يفقد وعيه، يفقد وعيه ليس كالسكران وإنما كأنه جثة.

حسن! سأقفز فوق التفاصيل المؤسفة.

وصلت سيارة الإسعاف. هزّ الطبيب رأسه ولم يقل شيئاً وحُمِل على نقالة، لا شك أنه ثقيل الجسم لأن الممرّضين بذلوا جهداً كبيراً في وضعه على المحفة وسحبه. لم أعرف عنه بعدئذ أي شيء. ولم أدرِ إن كان قد مات أم لا. لكنني أرجح أنه مات، فقد كان مخيفاً سماع أنينه وهو ممدد على أرض الحانة، ورؤيته يتمرغ وقد اربدّ وجهه الكبير المدوّر من الألم.

أغلق المحل وشرعنا نحن الثلاثة بالسير دون أن نتفوه بكلمة واحدة. وتذكرت أن ميمو كان قد قال أنه سينقلنا بتاكسي على حسابه. ولما رأيت أنه لم يف بكلمته، شعرت بغضب رهيب عليه لكذبه، ولحنثه بوعده. كان البرد قارساً يرافقه قليل من الريح. كل ذلك، زادني غضباً. كانت تساورني رغبة في أن أصرخ في وجهه ببعض الحقائق فوراً، ثم أتابع سيري وحيداً. لكنني سكت، لأنني كنت أشعر بحزن يشبه الخوف بأن أسير دون أن يرافقني أحد في ذلك الشارع المسكون بالكلاب الجائعة الباحثة عن بقايا الطعام في أكوام القمامة المقلوبة. كنت أنظر إلى الخلف كل لحظة؛ فقد كان يخيل إليّ أني أسمع ضوضاء ترام متأخر يمكننا أن نستقلّه للوصول إلى بيوتنا بسرعة. لكن الضوضاء كانت بعيدة وفي شارع آخر بعيد أيضاً. أما خايمه

الأحمق، فقد أصيب بفواق جعلني أكثر توتراً. ولما وصلنا إلى الحي حيث نقطن، لم نرفع أبصارنا لنودع بعضنا بعضاً، لعلهما كانا يكرهانني في تلك اللحظة أيضاً.

ذكرى الرجل السمين ظلت تتراقص داخل رأسي خلال تلك الأيام التي لم ألتق فيها بخايمه وميمو. كلما مررت أمام حانة، كنت أشعر بالتقزز، وكأن الخمر خمر العالم كله، له ذات الرائحة الكريهة التي كانت تملأ الحانة تلك الليلة حين نقل الممرضون المرتدون الأردية البيض كالملائكة الرجل السمين الذي كان منذ قليل يطفر مرحاً.

لكنني، بالرغم من تذكّري صديقي كل ذلك الوقت، وحزني لفقدهما، وإحساسي بأنني لست أحيا من دونهما، لم أشأ أن أبحث عنهما، لأنه كان يخطر لي، دون معرفة السبب، أنهما كانا مسؤولين عن كل ما جرى تلك الليلة، ولأن الخوف الذي كان ينتابني كلما فكرت بالرجل السمين (كنت أحس بالخوف، ولاأرى موجباً لإنكاره) - سيزداد سوءاً لو اجتمعت بهما مرة أخرى. لاننا بتواجدنا معاً، سنبدأ بتناول الخمر مرة أخرى. وأنا ما كنت أريد ذلك.

كل مساء يمردون أن نرى بعضنا، كان يبدو أنه يبعدني أكثر فأكثر عن خطر لا أعرف حقيقته، لكنه كان يبعدني أيضاً عن كل ما يجعل المرء جديراً بالحياة. أخيراً، صرت أخرج مساء. خرجت مرتين أو ثلاث مرات حوالي الساعة الثامنة. وكل مرة كنت أشتري عرنوس ذرة من العجوز المتمركزة مع منقلها على الزاوية، كل ذلك كان تحايلا مني على أمل أن ألتقي بخايمه وميمو. والتقينا أخيراً. قد كان مضى ثلاثة عشر يوماً على آخر لقاء لنا. اشترينا عرانيس ذرة، وأكلناها وقوفاً على الزاوية وكأنما رأينا بعضنا البارحة. ثم اتفقنا على الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم هذه الليلة.

لما انتهى الفيلم، لم يكن لدى أي منا رغبة في الكلام. أنا أعلم ما كان يجري لنا. ذلك أن لقاءنا ومشاهدة الفيلم دون تناولنا بعض الأقداح، كان يعني أن شيئاً ما في صداقتنا أخذ يتبدد ويضيع في هذا الصمت الذي يشبه صمت تلك الليلة. كان الخوف الذي يباعد بيننا، يمكن أن يتحول إلى بغضاء تحطم صداقتنا إلى الأبد.

في طريقنا إلى بيوتنا، عبرنا من أمام حانة، لكننا لم نقل شيئاً، ولم ننظر إلى بعضنا. كنت أسير وقد ضغطت على يدي بشدة داخل جيبي معطفي. ولاحظت على ميمو وخايمه توتراً مشابهاً. تابعنا طريقنا صامتين، ومررنا أمام باب حانة أخرى، لم نلتفت إليها كأنها غير موجودة. لكن، قبل الوصول إلى الحي، توجد حانة أخرى، وهي الأخيرة، وكنت أعلم، إن لم يحدث شيء يوقفنا ويرغمنا على الدخول، فسوف يتضاءل لقاؤنا منذ تلك الليلة، شيئاً فشيئاً حتى نكفّ عن إلقاء التحيّة على بعضنا في الشارع، وذلك لن يكون. ما زالت الحانة على بعد خطوات إلى الأمام. وكان علي أن أقف، وأجعلهما يدخلان.

لكننا، حين وصلنا إلى باب الحانة، وقفنا جميعا في آن واحد. نظرت إلى ميمو وخايمه، وأدركت أنهما فكرا تفكيري ذاته، ولما جلجلت ضحكتنا معاً علمنا أننا هزمنا الخطر. وقال خايمه:

- أنقتل ظمأنا، أيها التيسان؟

فتحنا الباب ودخلنا:

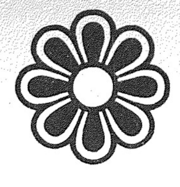
- أي نوع ترغبان فيه؟ - سألتهما متصنّعاً الغفلة.

- وماذا يمكن أن يكون؟ - قال ميمو ضاحكاً.

أعتقد أننا فعلنا خيراً. نحن لا نزال شبانا صغاراً كي نعنى بصحتنا عناية فائقة. لكن، متى نصبح شيوخاً، ويرتفع ضغط دمنا كما حصل للرجل السمين الذي كان يرقص الشارلستون، يتعين علينا حينئذ أن نعنى بها. أما الآن، فلا موجب لذلك. وطلبنا ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر، من أفضل الأنبذة وأعتقها.

الفهرس

٢٠٠٠ ط١/٩/١٩٩٩



الطباعة وفرز الألوان: مطابع وزارة الثقافة

دمشـــق - ١٩٩٩

0596105

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العر

٢٠٠ ل.س